جرازيلا

تأليف

لامارتين

ترجمة

نجيب المستكاوي

جودت عثمان

راجعه

الدكتور يحيى الخشاب



الألف كتاب ٣٦٨

جرازيلا

باشراف
الإدارة العامة للثقافة
وزارة التربية والتعليم
بالإقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب ٣٦٨

جرازيلا

لامارتين

ترجمه

نجيب المستكاوى   جودت عثمان

راجعه

الدكتور يحيى الخشاب

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

١٩٦١

هذه ترجمة كتاب :

GRAZIELLA

تأليف

A. DE LAMARTINE

الفصل الأول

— ١ —

فى الثامنة عشرة من عمرى ، عهدت بى أسرتى إلى إحدى قريباتى التى استدعتها بعض الشئون إلى توسكانيا ، حيث ذهبت برفقة زوجها . وكانت هذه فرصة لحملى على الترحال ، وانتشالى من الفراغ الخطر فى بيت الأسرة والمدن الريفية حيث تفسد بواكير شهوات النفس لانعدام النشاط . فرحلت متحمسا حماس الطفل الذى يتوقع أن يرى الستار يرتفع عن أروع مشاهد الطبيعة والحياة .

جبال الآاب ، التى كنت من بعيد ، منذ طفولتى ، أرى الموجها الأزلية تأتلق فى نهاية الآفق ، من ذرى تلال مي ، والبحر الذى كان الرحالة والشعراء قد رسخوا فى ذهنى كثيراً من صوره الباهرة ، والسماء الإيطالية التى كنت ، إن جاز القول ، قد استروحت دفئها وصفاءها فى صفحات كورين وفى أشعار جوته :

هل تعرف تلك الربوع التى يزدهر فيها الريحان ؟

وآثار قدماء الرومان التى ما برحت قائمة ، والتى كانت دراستى لها قريبة العهد تملأ فكرى ، ثم الحرية ، والمدى الذى يضفى على بعيد الأشياء

هيبة ، والمغامرة ، وما فى طول الرحلات من أحداث محققة يتنبأ بها الخيال الشاب تنبؤا ، ويجد فى ترتيبها متعة ، بل يستمتع بها سلفا ، وتغيير اللغة والوجوه والأخلاق ، الذى يبدو كأنه يظهر العقل على دنيا جديدة : كل ذلك يسحر ذهنى سحراً .

عشت فى حالة نشوة متصلة خلال أيام الانتظار الطوال التى سبقت الارتحال ، هذه النشوة التى كانت تتجدد كل يوم بفضل روائع الطبيعة فى سافوى ، وسويسرا ، وبحيرة جينيف والموج سمبلون وبحيرة كومو ، وميلانو ، وفلورنسة ، هذه النشوة لم تخف حدتها إلى حين عودتى .

وإذ تشعبت الشئون التى دعت رفيقى إلى السفر إلى ليفورن ، فقد جرى الحديث فى شأن إعادتى إلى فرنسا دون أن أرى روما ونابولى ، وكان ذلك بمثابة انتزاع حلم منى لحظة أن كدت أحققه ، فثرت فى دخيلتى على مثل هذه الفكرة . وحررت إلى أبى أسأله أن يأذن لى بمواصلة السفر فى إيطاليا وحدى . ودون أن أنتظر الرد الذى لم يراودنى الأمل فى أن يكون موافقا ، قررت أن أسبق إلى شق عصا الطاعة . قلت فى نفسى : « إن جاء الرفض فسيجىء متأخراً . سيلوموننى ولكن سيصفحون عنى . وسأعود ولكن بعد أن أكون قد شاهدت » . . وراجعت ماليتى المحدودة ، بيد أنى وضعت فى الحسبان أن لأمى قريبا مقيما فى نابولى ، وأنه لن يأبى مدى ببعض النقود للعودة . وذات ليلة جميلة رحلت من ليفورن عن طريق روما .

وأنفقت فيها الشتاء بمفردى فى غرفة صغيرة فى شارع معتم يطل على ميدان أسبانيا ، لدى رسام رومانى اتخذنى نزيلا فى أسرته . وكان حيائى وشبابى وحماسى وانفرادى وسط بلد غريب قد أثار اهتمام

أحد رفاق سفرى فى الطريق من فلورنسة إلى روما . وقد نشأت بيننا صداقة على الفور . كان شابا وسيما يناهزنى فى العمر . ويبدو أنه كان ابن أو ابن أخى - المغنى الشهير دافيد ، الذى كان حينئذ المغنى «الأول» فى مسارح إيطاليا وكان دافيد يرحل معنا أيضاً . وكان رجلا قد تقدمت به السن . وكان ذاهبا ليغنى لآخر مرة على مسرح سان شارل فى نابولى .

كان دافيد يعاملنى معاملة الأب لابنه ، وكان رفيقه الشاب يغمرنى بلطفه وعطفه . وكنت أرد على هذه المجاملات بما يقترن بسنى من عدم اكتراث وسذاجة . ولم نكد نصل إلى روما حتى أمسيت أنا والمسافر الوسيم صديقين لا يفترقان . ولم تكن العربة وقتذاك تقطع المسافة بين فلورنسة وروما فى أقل من ثلاثة أيام . وفى الفنادق كان صديقى الجديد ترجمانا لى ، وعلى المائدة كان يقدمنى فى اغتراف الطعام ، وفى العربة كان يحتجز لى بجواره أفضل مكان ، وإذا غفوت فوقنا أن كتفه ستكون وسادة لرأسى .

وعندما كنت أنزل من العربة فى المطالع الطويلة بتلال توسكانيا أو سابينا كان ينزل معى ، ويشرح لى البلد ، ويطلعنى على أسماء المدن ، ويدلنى على الآثار . بل إنه كان يقطف الزهر البديع ويشترى الطيب من التين والعنب فى الطريق ، ويملأ يدى وقبعتى بتلك الثمار . وكان يلوح أن دافيد يرقب بسرور عاطفة رفيقه فى السفر نحو الأجنبى الشاب . وكانا فى بعض الأحيان يتبادلان الابتسام وهما ينظران إلى نظرة تنم عن التفاهم والرقة واللطف .

وإذ بلغنا روما فى الليل ، اختلفت معهم بطبيعة الحال إلى فندق

واحد . وأرشدت إلى غرفتي ، ولم أستيقظ إلا على صوت صديقي الشاب يطرق الباب ، ويدعوني إلى تناول الإفطار فارتديت ثيابي على عجل ، ونزلت إلى البهو حيث يجتمع السياح . وهممت أن أصافح يد رفيقي في السفر ، وعبثاً جلت بعيني بحثاً عنه بين النزلاء ، وإذا بجميع الحضور ينفجرون في قهقهة عالية . فبدلا من ابن دافيد أبصرت بجانبه فتاة رومانية ساحرة المحيا ، أنيقة الملبس .

وكان شعرها الحالك ، المقصوص حول جبينها ، مشدوداً إلى الخلف بدبوسين طويلين من ذهب ، رأساهما من لؤلؤ ، على طريقة فلاحات تيفولي . وكانت هي صديقي الذي استعاد لدى وصوله إلى روما جنسه وملابسه .

كان ينبغي أن أشتبه في رقة نظرتها وفي جمال بسمتها . بيد أني لم يساورني في ذلك أي شك . قالت لي الرومانية الحسناء وقد تورد وجهها خجلا ، إن الثوب لا يغير القلب ، وكل ما في الأمر أنك لن تنام على كتفي ، وبدلا من أن تتلقى مني الزهور فأنت الذي سوف تهديني إياها . وستعلمك هذه المغامرة ألا تثق فيما بعد فيما يبدى لك من مظاهر الصداقة ، فقد تكون شيئاً آخر . »

كانت الفتاة مغنية : تلميذة دافيد المفضلة . وكان المغني العجوز يصطحبها في كل مكان ، ويلبسها في الطريق ملابس الرجال تفاديا للقيل والقال . وكان يعاملها كأبيها ، ولم تكن تخالجه الغيرة قط بسبب الألفة البريئة التي سمح هو أن تنشأ بيننا .

أنفق دافيد وتلميذته بضعة أسابيع فى روما . وغداة وصولنا عادت إلى ملابس الرجال ، واقتادتنى أول الأمر إلى سان بيير ، ثم إلى الكوليزيوم ، وفراسكاتى ، وتيفولى ، وألبانو ، وكذلك تفاديت التكرار المضنى من جانب الأدلاء المأجورين الذين يشرحون للسياح جسد روما ، والذين يهوشون المشاعر ببياناتهم المملة عن أسماء الأعلام والتواريخ ، فيشغلون الفكر ويحولون الإحساس عن الجميل من الأشياء . لم تكن كاميلا عالمة ، بيد أنها ولدت فى روما فكانت تعرف بالغريزة المناظر الجميلة والمشاهد العظيمة التى أثرت فى نفسها إبان طفولتها .

كانت تقتادنى دون إعمال فكر إلى خير البقاع وفى خير الأوقات للتأمل فى أطلال المدينة العتيقة : فى الصباح فى كنف أشجار الصنوبر ذات القباب الضخمة فى جبل مونت بنشيو ، وفى المساء تحت ظلال أعمدة سان بيير ، وفى ضوء القمر إلى بهو الكوليزيوم الساكن ، وفى أيام الخريف الجميلة إلى ألبانو ، وفراسكاتى ، ومعبد السبيلا الذى يتردد فى جنباته ويسيل فى أنحائه بخار شلالات تيفولى ، كانت مرحة نزقة كأنها تمثال للشباب الخالد ينتصب وسط أطلال الزمن والردى هذه . كانت ترقص على مقبرة سيسليا متيلا ، وحينما كنت أجلس حالماً فوق حجر ، كانت تجعل قباب قصر ديوكلسيا الأنيقة تردد صدى نبرات صوتها المسرحى .

وفى المساء كنا نعود إلى المدينة وعربتنا مليئة بالزهور ومخلفات

التماثيل لنلحق بدافيد العجوز ، الذى كانت شئونه تستبقيه فى روما ، والذى كان يقتادنا إلى مقصورته اختتاما لليوم . ولم تكن المغنية التى تكبرنى ببضع سنوات تظهر لى من المشاعر إلا صداقة رقيقة . وكنت أبلغ من الحياء مالا أستطيع معه أن أبدى لها مشاعر أخرى ، بل إنى حتى لم أشعر بها بالرغم من شبابى وجمالها . فإن زى الرجال الذى ترتديه ، وألفتها معى ألفة الرجال ، ونغمة صوتها الكونترألتو الرجولى ، وتحرر سلوكها ، كل ذلك كان يترك فى نفسى أثرا بلغ من عمقه أنى لم أر فيها سوى شاب جميل : رفيق وصديق .

— ٣ —

عندما سافرت كاميلا ، مكثت وحدى فى روما ، دون أى خطاب توصية ، ولا أى معارف سوى ما عرفتنى به كاميلا من مواقع وآثار وأطلال . ولم يكن الرسام العجوز الذى أقمت عنده يخرج قط من مرسمه إلا ليذهب يوم الأحد إلى القداس مع زوجته وابنته ، وكانت فتاة فى السادسة عشرة نشطة مثله . وكان بيتهم أشبه بالدير حيث لا يقطع عمل الفنان إلا وجبة شهية أو صلاة .

وفى المساء ، عندما تنطفىء أواخر أشعة الشمس على نوافذ غرفة الفنان الفقير العالية ، وتدق أجراس الأديرة المجاورة لحن « السلام لك يا مريم » ، وداع النهار الموسيقى هذا فى إيطاليا ، كانت التسلية الوحيدة للأسرة أن تصلى وتسبح جماعة ، وأن تترنم بقراءة مستطيلة من « المزامير » ، إلى أن تؤول الأصوات التى ضعضعها النعاس إلى

همس غامض مل أشبه بهمس الموج الذى يهدأ عند الشاطىء حيث تسكن الريح مع هبوط الليل .

كنت أحب مشهد المساء الساكن الورع هذا ، حيث ينتهى نهار حافل بالعمل بهذه التسبيحة لأرواح ثلاثة ترتفع إلى السماء لتستريح من عناء اليوم . كان هذا يذكرنى ببيت أبى ، حيث كانت أمى تجمعنا أيضاً فى المساء للصلاة ، حينا فى غرفتها ، وحينا فى الممرات الرملية بحديقة مى الصغيرة ، عند أضواء الشفق الأخيرة . وإذ وجدت نفسى العادات والأفعال والدين ، كنت أشعر بأنى وسط هذه الأسرة الغريبة أعيش تحت سقف بيت أبى . لم أر قط حياة أمعن انطواء وورعا ، وأكثر اعتكافا ونشاطا وتطهرا من حياة بيت الرسام الرومانى .

وكان للرسام أخ . ولم يكن هذا الأخ يقيم معه . كان يعلم اللغة الإيطالية لذوى الحيثية من الأجانب الذين ينفقون الشتاء فى روما . ولم يكن مجرد مدرس لغة ، فقد كان أديبا رومانيا من أول طراز . وكان لا يزال فى عنفوان الشباب ، رائع القسمات « قديم » الخلق ، مما أهله للقيام بدور بارز فى محاولات الثورة التى قام بها الجمهوريون الرومانيون لابتعاث الحرية فى ديارهم . كان أحد الزعماء الشعبيين ، وكأنه « ريتزى » هذا العهد . وفى هذا البعث القصير لروما العتيقة ، الذى أذكاه الفرنسيون وأخمده ماك وأهل نابولى ، لعب دورا من أهم الأدوار ، فقد خطب فى الشعب فى الكابيتول ، ورفع راية الاستقلال ، وشغل مركزا من أهم المراكز فى الجمهورية . ولقد طورد ، واضطهد ، وسجن أثناء الحركة العكسية ، ولم يحصل على أمنه إلا بفضل مجىء الفرنسيين الذين أنقذوا الجمهوريين ، وإن قضوا على الجمهورية .

كان هـذا الرومانى يعبد فرنسا الثورية والفلسفية ، ويمقت الإمبراطور والإمبراطورية . وكان بونابرت عنده كما هو شأنه عند كل الإيطاليين الأحرار قيصر الحرية . وكنت أنا أيضا فى ميعة الشباب ولذا كانت تخالجنى المشاعر نفسها . وسرعان ما ظهرت بيننا هذه المشاركة الفكرية ، وإذ شاهد مدى ما يعتمل فى نفسى من حماس فوار ورزين فى الوقت نفسه إزاء نغمات الحرية ، عند ما كنا نطالع القصائد النارية للشاعر مونتى أو المشاهد الجمهورية لألفييرى ، فقد رأى أنه يمكنه أن يفتح لى قلبه فتحا ، فأصبحت له صديقا أكثر منى تلميذا .

— ٤ —

إن البرهان على أن الحرية هى المثل العلوى للإنسان ، هو أنها أول أحلام الشباب ، وأنها لا تغيض من النفس إلا عندما يذوى القلب وينحط الذهن أو يقنط . فما من نفس تبلغ العشرين عاما إلا وتعشق الجمهورية ، وما من قلب بال إلا ويتقبل العبودية .

كم من مرة ذهبت أنا وأستاذى لنجلس على تل فيلا بامفيلى الذى يرى المرء منه روما وقبابها وخرائبها ، والتيبر ، نهرها الذى ينسرب موحلا ، صامتا ، خجلان ، تحت قناطر بونت روتو المقوضة ، حيث يسمع أنين عيونها الشاكية ، وخطوات أهلها الصامتة إذ يمشون فى سكون فى شوارعها المقفرة . كم من مرة ذرفنا دموعا مرة على مصير هذه الدنيا المستنيمة لكل ضروب الطغيان ، حيث كلما لاح أن الفلسفة

والحرية تحاولان أن تبعثا لحظة فى فرنسا وإيطاليا طحنهما الطغاة ، وخذلوهما ، وكبتوهما فى كل مكان . كم من لعنة ندت من صدرينا فى صوت خفيض على طاغية الذهن البشرى هذا ، على هذا الجندى المتوج الذى لم ينضم للثورة إلا ليستمد منها القوة لكى يدمرها ، ويسلم الشعوب من جديد لكل صنوف الأباطيل والعبودية .

عندى أنه من هذا العهد يبدأ حب الناس لتحرير الذهن البشرى ، ويبدأ ذلك البغض الفكرى لبطل العصر هذا ، البغض المحسوس والمعقول فى وقت معا ، الذى يحققه ، التفكير والزمن ، بالرغم من المطنبين فى ذكراه .

— ٥ —

تحت تأثير هذه المشاعر درست روما ، تاريخها وآثارها . كنت أخرج فى الصباح وحدى ، قبل أن يتهيأ لعجيج المدينة أن يشغل فكر المتأمل . وكنت أتأبط كتب المؤرخين والشعراء ، وواصفى روما . وكنت أجلس ، أو أتجول خلال أطلال الفورم ، والكوليزيوم ، .. والريف الرومانى المقفرة . كنت تارة أشاهد ، وتارة أطالع وأفكر . كنت أدرس روما دراسة عملية جادة .

كان هذا أفضل بحوثى فى التاريخ . وبدلا من أن يكون الزمن الغابر موروثا للضجر أصبح عندى عاطفة . ولم أتبع فى هذه الدراسة منهجاً آخر سوى ميولى . فقد كنت أسير ، على غير هدى ، إلى حيثما تقودنى قدماى . وكنت أنتقل من روما العتيقة إلى روما الحديثة ، من البانثيون

إلى قصر ايون العاشر ، من بيت هوراس فى « تيبور » إلى بيت رافائيل ،
الشعراء ، والرسامون ، والمؤرخون ، والعظماء : كان الجميع يمرونه
أمامى بلا ترتيب ، فلا أستوقف منهم هنيهة إلا من يستثير المزيد من
اهتمامى فى ذاك اليوم .

وزهاء الساعة الحادية عشرة كنت أعود إلى « زنزانتى » الصغيرة
فى منزل الرسام لتناول الإفطار . كنت آكل كسرة من الخبز وقطعة
من الجبن وأنا متلهف إلى المنضدة ، منكب على المطالعة . وكنت أشربه
قدحاً من اللبن ، ثم أعمل وأدون مذكراتى ، وأكتب حتى موعد الغداء .
وكانت تعده لنا زوجة مضيفى وبنته بذاتيهما ، وكنت بعد الوجبة أقوم
بجولات أخرى ولا أعود إلا بعد انسدال الليل . وكانت بضع ساعات
من الحديث مع أسرة الرسام ومن المطالعات المتوغلة إلى هزيع متأخر من
الليل تختم هذه الأيام الهادئة . لم أكن أشعر بأى حاجة للاجتماع بالناس ،
بل كنت أستمتع بعزلتى . كان حسبى روما ونفسى .... وكذلك أنفقته
شتاء طويلا بأكمله ، منذ شهر أكتوبر حتى شهر أبريل التالى ، دون يوم
من الملل أو الضجر . وإنه لعلى ذكرى هذه الأحاسيس نظمت بعد مضى
عشر سنين قصيدة عن « تيبور » .

— ٦ —

والآن ، عندما أقلب جيداً فى فكرى كل ماخلفته روما فى
نفسى من أحاسيس ، لا أجد إلا اثنين يمحوان الأحاسيس الأخرى
جميعاً أو على الأقل يسيطران عليها : الكوليزيوم ، تحفة الشعب الرومانى ،
وسان بيير ، آية الكاثوليكية . إن الكوليزيوم أثر جبار لشعب فذ خارق

كان يشيد إرضاء لكبريائه ومتعه الوحشية آثارا يمكن أن تحتوى شعباً بأكمله ، آثارا تنافس من حيث الضخامة والاستدامة صنائع الطبيعة نفسها . . ولو أن نهر التيبر غاض بين ضفافه الحمئة لظل الكوليزيوم قائما يشرف عليه .

أما سان پيير فهى عمل فكر ، عمل دين ، عمل الإنسانية جمعاء فى عصر من عصور الدنيا . فليس الأمر أمر عمارة مكرسة لاحتواء شعب وضيع . وإنما هى معبد مكرس لاحتواء الفلسفة كلها ، والصلوات كلها ، وعظمة الإنسان كلها ، وفكره كله . يبدو أن الجدران ترتفع وتتسع لا بالقياس إلى شعب ما ، بل بالقياس إلى الإله . لقد فهم ميشيل أنجلو وحده الكاثوليكية وأعطاها فى كنيسة سان پيير أسمى وأكمل تعبير . حقيقة إن سان پيير هى تأليه حجرى بل تجسد أثرى لدين المسيح .

كان مهندسو الكاتدرائيات القوطية برابرة رائعين . أما ميشيل أنجلو فكان وحده فليسوفا فى تصويره . إن سان پيير هى النصرانية الفلسفية التى يطرد منها المهندس الإلهى الظلمات ، ويدخل فيها المدى والجمال ، والاتساق ، والنور فى أمواج لا تفرغ . إن جمال روما المنقطع النظير هو فى أنها معبد تخاله مكرسا لينطوى على فكرة الله بكل جلالها .

ولو أن المسيحية انقرضت لظلت سان پيير المعبد العالمى ، الأزلى ، العقلى ، للدين الذى سيعقب دين المسيح أيا كان ، على شريطة أن يكون ديناً يليق بالله وبالإنسانية . إنه أكبر معبد معنوى شيدته على البسيطة عبقرية الإنسان ملهمة بفكرة إلهية . فعندما تلجه لا تدرى هل أنت فى معبد عتيق أم فى معبد حديث ، فما من تفصيل يضنى العين ،

وما من رمز يشغل الفكر ، جميع الناس من جميع الأديان يدخلونه بحدوهم عين الاحترام . إنك لتحس أنه معبد محال أن تسكنه غير فكرة الله ، وأن أية فكرة أخرى محال أن تملأ فراغه .

بدل الكاهن ، احذف الهيكل ، افصل اللوحات ، انقل التماثيل : لاشيء يتغير فإنه دائماً بيت الله . أو الأحرى أن سان پيير وحدها هي رمز كبير للمسيحية الأزلية التي تملك كبذرة في تعاليمها الأخلاقية وفي قداستها التطورات المتعاقبة للفكر الديني في جميع العصور وللناس أجمعين فتتفتح للعقل بحسب ما ينيره الله ، وتتصل في النور مع الله ، وتتسع ، وترتفع مع مقاييس الذهن البشري الذي يتسع بلا انقطاع ويستجمع الشعوب جميعاً في عبادة واحدة فيجعل من صور الألوهية كافة إلهاً واحداً ، ومن الأديان جميعاً ديناً واحداً ، ومن الناس أجمعين إنسانية واحدة .

إن ميشيل أنجلو هو بمثابة موسى للكاثوليكية الأثرية ، كما سيفهمها الناس ذات يوم . لقد صنع « تابوت العهد » للمستقبل ، صنع بانثيون العقل المؤله .

— ٧ —

وأخيراً بعد أن شبعت من روما ، أردت أن أرى نابولي . كان ماجذبني إليها على الأخص قبر « فرجيل » ومهد « لوتاس » فقد كانت البلاد عندي دائماً أناساً ، فنابولي هي فرجيل ولوتاس . خيل إلى أنهما على قيد الحياة أمس ، وأن رمادهما مازال دافئاً ، وكنت أرى سلفاً

خلال جو عبقريتها الجيلة الرقيقة ، البوزليبب ، والسورانتو ، وفيزوف ، والبحر .

رحلت إلى نابولى فى أواخر شهر مارس . وقد سافرت فى عربة بريد مع تاجر فرنسى كان يبحث عن رفيق طريق ليخفف تكاليف السفر . وعلى مسافة من فلليترى صادفنا عربة بريد روما ـ نابولى مقلوبة على حافة الطريق مثقوبة بالرصاص . وكان موظف البريد ، والسائق ، وجوادان مجندلين . وكانت جثتا الرجلين قد نقلتا من وقته قريب إلى كوخ مجاور . وكانت المنشورات المقطعة ومزق الرسائل تذروها الريح . وكان قطاع الطريق قد اتخذوا طريق أبروز . وكانت تطاردهم بين الصخور فصائل من الفرسان والمشاة الذين كانت وحداتهم مرابطة فى تيراسين. وكنا نسمع دوى الرصاص ، ونرى على سفح الجبل بطوله دخان الطلقـــات النارية . وكنا نقابل من مسافة إلى مسافة معسكرات القوات الفرنسية والنابولية مبثوثة على طول الطريق . كذلك كان الدخول إلى مملكة نابولى آنذاك .

كان لقطع الطريق هذا صبغة سياسية . فقد كان « مورا » يحكم ، وما فتىء الكالابريون يقاومون ، وكان الملك فرديناند ، الذى انسحب إلى صقلية ، يزود رؤساء العصابات فى الجبال بالموارد . وكان فراديافولو الشهير يحارب على رأس تلك العصابات . كانت حملاتهم مذابح . ولم نجد النظام والأمان إلا عند مشارف نابولى .

بلغتها فى أول أبريل . ولحق بى بعد ذلك ببضعة أيام شاب يناهزنى فى العمر ، كنت قد ارتبطت وإياه فى المدرسة بلحمة صداقة أخوية

حقيقية . كان يدعى إيمون دى فربيه ، وكانت حياته وحياتى منذ طفولته إلى مماته مندمجتين لدرجة أن وجوده ووجودى كان يكمل كلاهما الآخر ، وأنى تحدثت عنه فى كل موضع تحدثت فيه عن نفسى .

٨

عشت فى نابولى حياة التأمل نفسها تقريبا التى عشتها فى روما لدى رسام ميدان أسبانيا العجوز ، إلا أنى بدلا من إنفاق نهارى متجولا بين أطلال الآثار كنت أنفقه على الشواطىء أو على متن أمواج خليج نابولى . وكنت أعود فى المساء إلى الدير القديم ، حيث كنت أقيم - بفضل كرم ضيافة قريب أمى - فى غرفة صغيرة تحت السقف مباشرة . وكانت شرفتها المزينة بأصص الزهور والنباتات المتسلق تطل على البحر وبركان فزوف ، وكاستلامارى ، والسورانتو .

لما كان أفق الصباح يبدو صافيا رائقا ، كنت أرى بيت لوتاس الناصع متألقا ، معلقا كأنه وكر « بجعة » على قمة الصخور الباسقة الصفراء التى نحتتها الأمواج نحتا عموديا . كان هذا المشهد يخلب لبى ، كان ضوء هذا البيت يتلألأ حتى يلمس شغاف نفسى : كان بمثابة بريق مجد يشع من بعيد على شبابى وخمول ذكرى . فيتوارد على خاطرى مشهد البطولة فى حياة هذا الرجل العظيم ، عندما أفرج عنه من السجن ، يلاحقه حسد الصغار وتشهير الكبار ، يتخرصون عليه حتى فى عبقريته ، ثروته الوحيدة ، فعاد إلى السورنتو ينشد لمحة من راحة ، ومسحة من رقة أو شفقة ، وإذ يتنكر فى أسمال متسول يتقدم إلى أخته ليبلو قلبها ويرى ما إذا كانت هى على الأقل تتعرف على ذلك الذى طالما أحبها .

ويقول مؤرخه الساذج « رغم شحوبه من العلة ، ولحيته المبيضة ومعطفه الممزق ، ارتمت بين ساعديه يحدوها من الحنان والإشفاق أكثر مما لو كانت عرفت أخاها مرتديا ثياب حاشية فيرارى الموشاه بالذهب . واحتبس صوتها طويلا بالنشيج ، وضمت أخاها إلى فؤادها .

وغسلت له قدميه ، وأحضرت له معطف أبيها ، وأعدت له وجبة احتفال . إلا أنه لا هذا ولا تلك استطاع أن يحمله يمس الطعام الذى أعد ، فإلى هذا الحد كان قلباهما فائضين بالدموع ، وأنفقا النهار يجهشان بالبكاء دون أن يتحادثا ، مشاهدين البحر ومتذكرين أيام الصبا . »

٩

وذات يوم ، كان مستهل الصيف ، حينما يشبه خليج نابولى وقد حفت به التلال ، والبيوت البيضاء والصخور المكسوة بالكروم المعرشة المحيطة ببحرها الذى يفوق سماءها زرقة يشبه آنية أثرية خضراء مترعة بالزبد الأبيض ، ويزين اللبلاب والعساليج مقابضها وحوافها . كان الموسم الذى يبتعد فيه صيادو البوزيليب الذين يقيمون أكواخهم معلقة على صخور الخليج . وينشرون شباكهم على الرمال الرقيقة لشواطئهم الصغيرة ـ يبتعدون عن الأرض فى ثقة . . وينطلقون للصيد فى الليل على بعد مرحلتين أو ثلاث مراحل وسط الدأماء ، لغاية صخور جزر كابرى وبروسيدا وإيسكيا . ووسط خليج جايتى .

ويحمل بعضهم مشاعل يؤرثونها ليخدعوا السمك . فيصعد السمك نحو الضوء حاسبا أنه شفق الصباح . ويجلس طفل القرفصاء على مقدم القارب ، ويمسك الشعلة مائلة فوق الموجة ، فى حين ينظر الصياد فى أغوار

المياه محاولا أن يرى فريسته ليقتنصها فى شبكته . وتنعكس هذه النيران المتوهجة توهج موقد الفرن ـ تنعكس فى خطوط طويلة متموجة على صفحة البحر ، مثل الأضواء المستطيلة التى تشعها عليه الكرة القمرية ، وتدفعها رجرجة الأمواج إلى الاهتزاز فيمتد وميضها من موجة إلى موجة فيبتعد بقدر ما تعكسه الموجة الأولى على الأمواج التى تعقبها .

١٠

كثيرا ما كنا ننفق ساعات بأكملها ، صديق وأنا ، جالسين على صخرة أو على أطلال قصر الملكة جان الرطبة ، نشاهد هذه الأضواء العجيبة ، ونحسد أولئك الصيادين الفقراء على حياتهم المتجولة الخالية من الهموم .

وقد جعلتنا إقامتنا بضعة أشهر فى نابولى . ولقاؤنا المعتاد لأفراد الشعب أثناء جولاتنا اليومية فى الريف والبحر . نألف لغتهم الرنانة المنغمة . التى تحتل الإشارة والنظرة فيها مكانا أكبر مما تحتله الكلمة . ولما كنا فيلسوفين بالحدس . ومتعبين بشواغل الحياة وزعازعها الباطلة قبل أن نعرفها . فقد كنا نغبط أولئك الصيادين السعداء المنتشرين على شواطىء نابولى وأرصفتها . منفقين أيامهم فى النوم تحت ظلال قواربهم الصغيرة على الرملة . أو فى استماع القصائد المرتجلة لشعرائهم المتجولين وفى رقص التارنتلا مع فتيات طبقتهم ، فى المساء ، تحت تعاريش الكرم على شاطىء البحر . وكنا نعرف عاداتهم وطباعهم وأخلاقهم أفضل مما نعرف عادات وطباع وأخلاق المجتمع الراقى الذى لم نغشه قط ، كانت هذه الحياة تعجبنا وتهدىء فينا ثائرة هذه الاختلاجات

النفسانية المحمومة ، التى تفسد خيال الشباب بلا جدوى قبلما يدعوهم عصيرهم إلى العمل أو إلى التفكير .

كان صديقى فى العشرين من عمره ، وكنت فى الثامنة عشرة . كان كلانا إذن فى تلك السن التى يسمح فيها للمرء بأن يخلط بين الخيال والحقيقة . فعولنا على أن نتعرف بأولئك الصيادين وأن نبحر معهم لنعيش الحياة نفسها بضعة أيام . كانت هذه الليالى الدافئة المضيئة التى تنفق تحت الشراع ، فى هذا المهد الذى تهدهده الأمواج . وتحت السماء العميقة المتلألئة النجوم - كانت تبدو لنا لذة من أمعن ملذات الطبيعة استغلاقا ، لذة ينبغى أن نغتنمها ونعرفها ، ولو لمجرد أن نرويها .

كنا شابين حرين ، وليس ثمة من يحاسبنا على أفعالنا وغيابنا ولذا فقد نفذنا فى الغداة ما حلمنا به فى العشية . وإذ اخترقنا شاطىء المارجلينا الذى يمتد تحت قبر فرجيل ، فى سفح البوزيليب . وحيث يشد صيادو نابولى قواربهم على الرملة ويرتقون شباكهم . أبصرنا شيخاً مابرح قويا . كان يشحذ أدوات صيده فى قاربه المزخرف بألوان صارخة ، والذى يحمل فى مؤخرته تمثالا صغيرا للقديس فرنسوا . وفى تلك اللحظة كان طفل فى الثانية عشرة من عمره — هو مجدفه الوحيد — يحضر إلى القارب رغيفين من الخبز وقطعة جافة من الجبن ، صفراء تبرق بريق حصباء الشاطىء ، وبعض التين ، وآنية من الفخار تحتوى على الماء .

وقد جذبنا وجه الشيخ ووجه الطفل أيضاً ، وجاذبناهما أطراف الحديث . وأنشأ الصياد يبتسم عندما اقترحنا عليه أن يقبلنا عنده كمجدفين وأن يأخذنا معه إلى البحر . قال لنا : « ليس لكما الأيدى الخشنة اللازمة لمسك المجداف . إنما خلقت أيديكم البيضاء لتمسك القلم

وليس الخشب ، إنها لخسارة أن تخشنوهـا فى البحر .» فأجابه صديق «نحن شابان ونود أن نجرب كل الحرف قبل أن نختار إحداها . وإن حرفتك اثروتنا لأنهـا تؤدى فى البحر وتحت السماء » . فرد الصياد العجوز « أنت على حق ، فهى حرفة تجعل القلب راضياً قريراً ، والذهن واثقاً مؤمناً بحماية القديسين . فالصياد يعيش فى رعاية السماء المباشرة ، والإنسان لايعرف من أين يأتى الريح والموج . إن الفارة والمبرد فى يد العامل ، والثروة والحظوة فى يد الملك ، أما القارب ففى يد الله . »

زادتنا فلسفة النوتى العجوز التقية هذه إصرارا على فكرة الإبحار معه . وأخيراً قبل بعد مقاومة طويلة ، واتفقنا على أن يعطيه كلانا يوميا « كارلينين » نظير تعليمنا وغذائنا .

وعلى أثر إبرام الاتفاق ، أوفد الطفل إلى المارجلينا لاجتلاب مزيد من المئونة من خبز ونبيذ وجبن جاف وفاكهة . وعندما أدبر النهار ساعدناه فى إنزال القارب إلى البحر وأقلعنا .

— ١١ —

كانت الليلة الأولى لذيذة رائعة .. كان البحر هادئاً هدوء بحيرة مصورة بين جبال سويسرة ، وكلما نأينا عن الشاطىء رأينا ألسنة النار المنبعثة من نوافذ قصور نابولى وأرصفتها تتوارى تحت صفحة الأفق المعتمة . كانت الفنارات وحدها ترينا الشاطىء .وكان يتولاها الخفوت أمام عمود النار الخفيف المندلع من فوهة بركان فيزوف . وبينما كان الصياد يلقى شبكته ويجذبها ، والطفل المثقل الأجفان يترك شعلته

تتأرجح ، كنا نمطى القارب بين الفينة والفينة دفعه خفيفة ، ونستمع فى نشوة إلى قطرات المياه المنغمة التى تنساب من مجدافينا ، وتتساقط فى البحر فى إيقاع رتيب تساقط اللآلىء فى حوض من لجين .

لقد تخطينا منذ أمد طويل رأس البوزيليب ، واخترقنا خليج بوزوليس ، وخليج بايا ، وتجاوزنا قناة خليج جايتى بين رأس مسينا وجزيرة بروسيدا . أمسينا فى عرض البحر ، وغلبنا النعاس فنمنا تحت مقاعدنا ، بجوار الطفل .

ونشر الصياد فوقنا الشراع الثقيل المطوى فى قاع القارب ، وكذلك نمنا بين موجتين . . . تهدهدنا الأرجحة غير المحسوسة لبحر هادىء لا يكاد يحرك الصارى . وعندما استيقظنا كنا فى رأد الضحى .

كانت الشمس الساطعة تموه صفحة البحر بأشرطة تموجة من اللهب ، وتنعكس على البيوت البيضاء القائمة على شاطىء مجهول . وكان ثمة نسيم عليل يهب من تلك الأرض فيجمل الشراع يخفق فوق رءوسنا ، ويدفعنا من شرم ، إلى شرم ، ومن صخر إلى صخر ، كان شاطىء جزيرة إيسكيا الفاتنة ذا صخور مدببة عمودية ، تلك الجزيرة التى طالما سأقيم بها ، وطالما سأحبها فيما بعد . لقد بدت لى من أول مرة سابحة فى النور ، بازغة من الماء ، تائهة فى زرقة السماء كأنها نفحة يتفتق عنها حلم شاعر خلال إغفاءة خفيفة ذات ليلة صيف . . .

— ١٢ —

إن جزيرة إيسكيا ، التى تفصل خليج جايتى عن خليج نابولى ، والتى تفصلها هى نفسها عن جزيرة بروسيدا قناة ضيقة ، ليست إلا جبلا واحداً

مشرعا تغمس قمته البيضاء المصروقة أسنانها المثلومة فى السماء ، وتكسو جوانبها الوعرة التى تشقها الوديان ومسارب المياه، وأخاديد السيول تكسوها من أعلى إلى أسفل أشجار كستناء داكنة الخضرة . وتحمل نجوك القريبة من البحر الممائلة على الموج أكواخا ، وبيوتا ريفية ، وقرى يستخفى منها شطر كبير تحت كروم العنب . ولكل من هذه القرى « بحريتها » . ويدعى كذلك المرفأ الصغير الذى ترسو فيه قوارب صيادى الجزيرة،وتخفق فيه بعض صوارى السفن الشراعية، وعوارض الصوارى تلمس أشجار الشاطىء وكرومه .

وما من بيت من هذه البيوت المعلقة على سفح الجبل ، سواء فى ذلك المستخفية فى أغوار أخاديده أو المدرجة فوق نجد من نجوده ، أو القائمة فوق رأس من رءوسه ، أو المتكئة على غابة كستنائه ، أو المتفيئة آجام صنوبره،أو المحوطة بأروقته البيضاء والمزينة بأعراشه المدلاة — إلا وكان فى الحلم المقر المثالى لشاعر أو لعاشق .

لم تسأم عيوننا هذا المشهد . وكان الشاطىء غزير السمك . وكان الصياد موفقاً فى ليلته . ورسونا فى أحد الخلجان الصغيرة بالجزيرة لنتزود بالماء من نبع مجاور ولنستريح فى ظل الصخور . وعند الأصيل عدنا إلى نابولى راقدين على مقاعد التجديف . وكان شراع مربع موضوع بعرض صار صغير فى المقدمة ، وقد أمسك الصبى بحبله — كان كافياً لكى نسير فى محاذاة ملساء بروسيدا ورأس مسينا ، ولكى نمخر سطح الدأماء بقاربنا الصغير .

وجر الصياد العجوز والطفل ، بمعونتنا ، قاربهما على الرملة وحملا

سلال السمك إلى قبو البيت الصغير الذى كانا يسكنانه فى ظل صخور المارجلينا .

— ١٣ —

وفى الأيام التالية استأنفنا مهنتنا الجديدة بمرح . ومخرنا عباب بحر نابولى وكسونا موجه بالزبد . وكنا نتبع الريح حيثما هبت دون ماتدبر ، وكذلك زرنا جزيرة « كابرى » حيث لا يزال الخيال يتقزز من شبح « تيبريوس » المشئوم ، « وكوم » ومعابدها المتوارية تحت أشجار الرند الأثيثة ، وأشجار التين البرية ، وبايا وشواطئها الكالحة الكئيبة التى تخالها هدمت وابيضت مثل أولئك الرومان ، والتى كانت فيما مضى مرتعاً لشبابهم وملاذهم ، وبورتيش وبومبايا الضاحكتين تحت حمم بركان فيزوف ورماده ، وكاستلامارى التى تنعكس فى البحر آجامها الباسقة السوداء من أشجار الرند والكستناء فتصبغ أمواج الميناء دائمة الهمس بخضرة داكنة . وكان النوتى العجوز يعرف فى كل مكان أسرة ما من بنى حرفته ، تكرم وفادتنا عندما يصطخب البحر فيحول دون عودتنا إلى نابولى .

شهران لم نختلف خلالهما إلى فندق . عشنا فى الهواء الطلق مع الشعب ، معيشة الكفاف كالشعب . كنا قد جعلنا أنفسنا من « الشعب » لنكون أقرب إلى الطبيعة . وكنا نرتدى ملابس الشعب ، ونتكلم لغته ، ولقد بثت فينا بساطة عاداته — إن أمكن القول — سذاجة مشاعره .

وعلى كل حال لم يكلفنا هذا التجول ، صديقى وأنا ، إلا القليل . فقد نشأنا — كلانا — فى الريف ، إبان عواصف الثورة ، التى ضعضعت أسرتينا أو بددت شملهما ، فعشنا طويلا فى طفولتنا معيشة الفلاح : هو ، فى جبال جريزيفودان ، لدى مرضعة آوته خلال سجن أمه ، وأنا ، على تلال ماكونيه فى المقر الريفى الصغير الذى آوى فيه أبوى ، عشهما المهدد . وليس من فرق بين الراعى أو الفلاح فى جبالنا وبين الصياد فى خليج نابولى إلا الموطن واللغة والمهنة . إن جرة المحراث والموجة توحيان فكرة واحدة إلى القوم الذين يشقون الأرض أو الماء . فالطبيعة تخاطب بلغة واحدة أولئك الذين يقيمون بين ظهرانيها سواء على أديم الجبل أو صفحة الدأماء .

ولقد أحسسنا ذلك . فى وسط هؤلاء القوم البسطاء لم نجد أنفسنا غرباء . فالغرائز الواحدة لحمة قربى بين بنى الإنسان . حتى وتيرة تلك الحياة الرتيبة كانت تروقنا . إذ تلهينا وتنومنا . وكان يشق علينا أن نرى دنو نهاية الصيف واقتراب أيام الخريف والشتاء هذه التى يتعين أن نعود بعدها إلى وطننا . وقد استبد القلق بأسرتينا ، فبدأتا تستدعياننا . وكنا نصد فكرة الرحيل هذه بقدر ما يمكننا ، وكان يطيب لنا أن نتصور ألا يكون لهذه الحياة نهاية أبداً .

— ١٤ —

وحينذاك بدأ سبتمبر بغيثه ورعده . وكان البحر أقل هدوءاً ووداعة . وباتت مهنتنا ـ التى ازدادت مشقة — فى بعض الأحايين

خطرة . كانت الأنسام تشتد ، والأمواج ترغي وتزبد ، وكثيراً ما بللتنا بفورانها . وكنا قد ابتعنا من الرصيف سترتين من السترات الصوفية الخشنة البنية اللون التي يطرحها نوتية نابولي وسوقتها على أكتافهم في الشتاء . وأكمام هذه السترات الفضفاضة تتدلى بجانب السواعد العارية .

وذات يوم أقلعنا من المارجلينا في بحر هادىء هدوء الزيت ، لا تختلج صفحته بنسمة واحدة ، قاصدين صيد سمك المرجان وبواكير التونة على شاطىء كوم حيث يدفعها التيار في ذلك الموسم وكان ضباب الصباح الاصهب ينسدل حتى يلف الشاطىء وينبىء عن ريح عاصفة في المساء . وكان يحدونا الأمل في أن نتفاداها ويتسع لنا الوقت لنجتاز رأس مسينا قبل أن يستيقظ البحر المثقل النعسان .

وكان الصيد غزيراً . وعن لنا أن نلقي بضع شباك أخرى ، فدهمتنا الريح ، هبت من قمة أيومبو ، الجبل الأشم الذي يربض مشرفا على إيسكيا — مصحوبة بقصف وثقل كأن الجبل نفسه قد انقض متداعياً في البحر . في بادىء الأمر مهدت كل المساحة السائلة التي تكتنفنا مثلما تمهد المسلفة الحديدية الأرض وتبسط الخطوط . ثم انتفخت الموجة مهمهمة غائصة ، بعد أن استردت روعها من المفاجأة ، ثم ارتفعت في بضع دقائق ارتفاعا بلغ من مداه أنها كانت تحجب عنا من حين لآخر الساحل والجزائر .

كنا قد بعدنا عن الأرض الثابتة وعن جزيرة إيسكيا سواء بسواء ،

وقطعنا نصف القناة التى تفصل رأس مسينا عن جزيرة بروسيدا الإغريقية. ولم يكن لنا معدى عن قرار واحد: أن نتوغل بحزم فى القناة، وإن أفلحنا فى عبورها نعطف إلى الشمال فى خليج بابا ونحتمى فى أمواهه الهادئة.

لم يتردد الصياد العجوز. فمن ذروة موجة علقنا فوقها توازن القارب لحظة وسط دوامة من الزبد مائجة، ألقى نظرة خاطفة حوله، شأنه شأن رجل ضل طريقه فتسلق شجرة ليتبينه، ثم هرع نحو الدفة صائحاً «إلى مجاديفكم ياأولاد! لابد أن نسير صوب الرأس أسرع من الريح، فلو أنها سبقتنا لكنا من الهالكين!». فأطعناه طاعة الجسد للغريزة.

علقت عيوننا بعينيه مترصدة أقل نأمة من توجيهاته، وقد ملنا فوق مجاديفنا. وإذ كنا تارة نتسلق بمشقة سفح الأمواج الصاعدة وتارة نهوى مع زبدها فى قلب الأمواج الهابطة، فقد حرصنا على تعجيل صعودنا أو تعويق هبوطنا بمقاومة مجاديفنا فى الماء. ودهمتنا نحو عشرة أمواج متزايدة فى الضخامة دفعتنا إلى أضيق جزء فى القناة. بيد أن الريح كانت قد سبقتنا كما توقع الربان، وانحصرت ما بين الرأس وطرف الجزيرة فاكتسبت قوة بلغ من مقدارها أنها كانت ترفع البحر بما يشبه فوران حمم بركان ثائر، وأن الموجة إذ لا تجد متسعاً للفرار بسرعة أمام العاصفة التى تطاردها، كانت تتكسر على نفسها فتندك، وتنساب، فتتشتت فى كل اتجاه كأنها بحر ثائر مجنون، وإذ تسعى إلى الإفلات دون أن تجد مهرباً من القناة، كانت ترتطم

بصخور رأس دسينا العمودية ارتطاماً مروعا حيث ترفع عموداً من الزبد يصل إلينا نثاره .

— ١٥ —

كان من الحماقة محاولة اجتياز هذا الممر بمثل ذلك القارب الهش الذى يمكن لأى دفعة من الزبد أن تملأه فتغرقه . فألقى الصياد على الرأس الذى يضيئه عمود الزبد نظرة لن أنساها ما حييت ، ثم رسم على صدره علامة الصليب ، صائحاً « إن العبور لمستحيل ، والتراجع إلى عرض البحر أكثر استحالة ، فلا مندوحة لنا من أمر واحد : أن تبلغ شاطىء بروسيدا أو نهلك » !

أثناء اتجاهنا صوب الرأس ، كانت الريح تدفعنا من خلف ، كما نت تسوقنا أمامها ؛ كنا نتبع البحر الذى يفر معنا ، وكانت الأمواج ترفعنا فوق قمتها وبالتالى ترفعنا معها فلا يكون ثمة فرصة لتغرقنافى الهوة التى تحفرها . لكننا لكى نبلغ بروسيدا التى كنا نرى أنوارها تتلألأ على يميننا ، كان علينا أن نشق طريقنا بعرض الأمواج ، وأن نتزلق فى أوديتها ، إن صح القول ، فى اتجاه الشاطىء ، معرضين جانبي القارب للموجة ، وحوافه الواهنة للريح . وأشار إلينا الصياد أن نرفع المجاديف ، واستغل الفاصل ما بين موجة وأخرى ليوجه القارب . وأخذنا سمتنا إلى بروسيدا ، وطفونا كعود من الطحلب تلقيه موجة إلى موجة ويتلقفه مد من مد ..

— ١٦ —

كنا نتقدم تقدماً طفيفاً ، وكان الليل قد أرخى سدوله . وضاعف من عتمته الرغام ، والرغاء ، والغيوم التى تدفعها الريح فوق القناة فى شتات ممزق مبعثر . وأمر الشيخ الصبي أن يوقد أحد مشاعله ، إما لينير بعض الشيء مناورته فى أعماق البحر ، وإما لينبيء بحارة بروسيدا أن فى القناة قارباً فى محنة ، وليسألهم ، لا نجدة وإنما دعاء .

كان مشهداً رائعاً ومروعاً ، مشهد هذا الغلام المنكود متشبثاً بإحدى يديه بالصارى الصغير القائم عند مقدمة القارب ، ورافعاً بيده الأخرى فوق رأسه تلك الشعلة المتوهجة نارها . التى ينثنى لهبها ودخانها بفعل الريح فيحرقان أصابعه وشعره . .

كانت هذه الشرارة الطافية ، الظاهرة فوق قمة الموج ، المختفية فى أعماقه ، الوشيكة الانطفاء دائماً ، المشتعلة أبدا — كانت بمثابة رمز لحيوات الرجال الأربعة أولئك ، الذين يكافحون ، بين النجاة والحمام فى ظلمات تلك الليلة وشدائدها . .

— ١٧ —

على هذا النحو مضت ثلاث ساعات طالت دقائقها طول الأفكار التى نقيسها — وارتفع القمر ، فارتفعت معه كالعادة الريح العاصفة . ولو كان معنا أقل شراع لقلبتنا الريح عشرين مرة . ومع أن حوافي القارب الخفيضة لم تمكن العاصفة منا إلا قليلا ، فقد مرت لحظات كادت

فيها أن تقتلع قاربنا من الموج اقتلاعا ، وكانت تتلاعب بنا كورقة جافة منتزعة من شجرة . . .

ووسق القارب ماء كثيراً : لم يكن فى وسعنا أن نفرغه بالسرعة التى يهاجمنا بها . ومرت لحظات شعرنا فيها بقاع القارب يهوى من تحتنا كالنعش الذى يهبط إلى القبر . وجعل ثقل الماء القارب أصعب قياداً ، وأمكنه أن يبطىء صعوده مرة عندما انحصر بين موجتين . ولو تأخرنا ثانية واحدة لقضى الأمر .

وأومأ لنا الشيخ ، عاجزا عن النطق ، وبعين ذات دمع ، أن نلقى فى اليم كل ما كان يزحم قاع القارب . جرار الماء ، وسلال السمك ، والشراعان الكبيران ، والعلب الحديد ، والحبال ، وحتى حزم ملابسه الثقيلة ، بل ستراتنا الصوفية الخشنة المبتلة : كل هذا ألقى من فوق القارب . وتأمل النوتى المنكود لحظة كل ثروته هذه عائمة . وصعد القـــارب ثانية ، وانطلق على قمة الأمواج بخفة ، شأنه شأن جواد خفف وقره .

ورويداً رويداً دخلنا فى بحر أودع ، يحميه نوعاً ما رأس بروسيدا الغربى . وهدأت ثائرة الريح ، واعتدل لهب الشعلة ، وشق القمر ثغرة كبيرة زرقاء بين السحب ، وامتد الموج فانبسط وكف عن نثر الزبد فوق هاماتنا . وشيئا فشيئا كان البحر قصيراً رجراجا كأننا فى شرم يكاد يكون هادئا ، وقطع ظل ماساء بروسيدا الأسود صفحة الأفق . كنا فى أمواه وسط الجزيرة .

وكان يبلغ من هياج البحر عند الرأس بحيث لم نفكر فى البحث عن المرفأ . فلم يكن مناص من أن نقرر النزول إلى الجزيرة من أحد جوانبها ووسط صخورها . وقال لنا الصياد وقد تعرف الشاطىء على ضوء الشعلة : « فلنكف عن القلق يا أولادى ، فقد أنقذتنا العذراء . لقد دنونا من البر ، وسوف ننام الليلة فى بيتى » . . حسبنا أنه قد فقد رشده ، فما عرفنا له مأوى آخر سوى قبوه المظلم فى المرجالينا ، ولكى نعود إليه قبل الليل ، كان علينا أن نلقى بأنفسنا ثانية فى القناة ونجتاز الرأس ، ونواجه من جديد البحر المصطخب الذى أفلتنا للتو من قبضته .

ولكنه ابتسم لما اعترانا من دهش ، وفطن إلى خواطرنا من عيوننا ، فاستأنف قائلا : « اطمئنا أيها الشابان ، وسوف نبلغه دون أن تبللنا أية موجة » . ثم أنشأ يشرح لنا أن بروسيدا هى مسقط رأسه ، وأنه مازال يملك على شاطىء الجزيرة هذا كوخ أبيه وحديقته ، وأنه كان فى بيته فى تلك اللحظة زوجته العجوز مع حفيدته الصغيرة ، أخت بيبينو ، بحارنا الصبى ، وطفلين آخرين صغيرين ، ليجففوا فيه التين ، ويقطفوا الكرم الذى يبيعون عنبه فى نابولى . .

ثم أضاف قائلا : « ضربتا مجداف أخريان نشرب من ماء النبع الذى يفوق نبيذ إيسكيا صفاء »

بثت فينا تلك الكلمات الشجاعة ، وعدنا نجدف مسافة مرحلة

تقريباً بمحاذاة ساحل بروسيدا المستقيم المزبد . وكان الطفل يرفع الشعلة ويحركها من آن لآن . وكانت تشع بصيصها المشئوم على الصخور وتبدى لنا فى كل مكان جداراً الاقتراب منه محال . وأخيراً ، عند رأس من حجر الجرانيت يمتد فى البحر على هيئة زاوية قائمة ، رأينا الصخرة تنحنى وتتجوف قليلا كأنها فجوة فى سور ، وبحركة من الدفة اتجهنا رأساً إلى الشاطىء ، ثم ألقت ثلاث أمواج أخيرة بقاربنا المنهوك بين صخرتين من الصخور حيث يفور الزبد فوق قاع ضحل .

— ١٩ —

أحدثت مقدمة القارب عندما لمست الصخرة صوتا أجش عالياً أشبه بقرقعة لوح من خشب يسقط فيتحطم . وقفزنا إلى البحر وربطنا القارب ماوسعنا بما تبقى من الحبال ، وتبعنا الشيخ والصبى اللذين تقدمانا . .

صعدنا سلماً ضيقاً متدرجاً على جانب الصخرة العالية حيث حفرت بالأزميل فى الحجر درجات متفاوته ، منزلقة بفعل الطحلب . وقد استبدل بهذا السلم المقدود من الحجر الحى ، الذى ينزلق أحياناً تحت القدم ، بعض درجات صناعية أقيمت عن طريق غرس قصبات طويلة من طرفها فى ثقوب الجدار ، وتغطية هذه الأرضية المهتزة بألواح القوارب القديمة المطلية بالقار أو بحزم من غصون أشجار الكستناء المكسوة بأوراقها الجافة .

وبعد أن صعدنا هكذا ببطء نحو أربعمائة درجة أو خمسمائة ، ألفينا أنفسنا فى فناء صغير معلق يلتف به سياج من الحجر الرمادى اللون. وكان فى آخر الفناء عقدان مظلمتان يبدو أنهما يفضيان إلى قبو. وكان فوق هذين العقدين الضخمين باشكتان مستديرتان منخفضتان يعلوهما سقف على هيئة شرفة ، زينت حوافه بأصص حصا لبان وريحان ، وكان تحت الباشكتين بهو ريفى ، تأتلق فيه فى ضوء القمر « أكواز » أذرة معلقة كأنها ثريات من ذهب .

وكان ينفتح على هذا البهو باب من ألواح غير محكمة . وعلى اليمين كانت الأرض التى يقوم عليها المنزل فى غير توازن ترتفع إلى مستوى البهو . وكانت شجرة تين ضخمة وبعض عساليج العنب المتعرجة تتدلى منها على زاوية المنزل مختلطة أوراقها وأثمارها تحت كوى البهو — ومنساباً من أغصانها المورقة إكليلان أو ثلاثة أكاليل انسياب الأفعى فوق دعامة الرواقين . وكانت فروعها تتدلى فتسد شطراً من نافذتين منخفضتين تطلان على هذه الحديقة البسيطة ، ولولا هاتان النافذتان لظننت هذا المنزل الأصم ، المربع ، المنخفض ، صخرة رمادية من صخور هذا الشاطىء ، أو ركاماً من أركام الحمم البارد التى تلتف بها أشجار الكستناء والليلاب والكروم فتواريها بأغصانها ، والتى يحفر فيها زراع الكرم فى كاستلا مارى أو سورانتى قبواً يغلقه باب ، كيما يحفظ نبيذه بجوار العود الذى حمله .

ولما كانت أنفاسنا قد تقطعت نتيجة للصعود الطويل السريع الذى صعدناه ، والثقل بمجاديفنا التى حملناها على عواتقنا ، فقد توقفنا

هنيهة ، الشيخ ونحن ، لنستريح ولنسترد أنفاسنا في هذا الفناء بيد أن الصبي ألقى بجدافه على كومة من العشب ، وصعد المتدرج بخفة . وطفق يدق على إحدى النافذتين بشعلته التي مابرحت مؤرثة . منادياً جدته وأخته بصوت مرح :

«أماه ! أختاه ! مادري ، سوربيلينا . جانياتا ! جرازيلا ! هبوا افتحوا ، ها أنذا . وأبي وبعض الغرباء معنا » .

سمعنا صوتاً نصف يقظان لكن كان واضحاً . رقيقاً . يطلق مرتبكا من داخل المنزل بعض صيحات من الدهشة . ثم انفرج مصراع إحدى النافذتين نصف انفراج . وقد دفعته ذراع عارية بضة بارزة من كم يتموج . ورأينا على ضوء الشعلة التي يرفعها الصبي نحو النافذة . وهو يشب على أصابع قدميه ، محيا صبيحاً ساحراً لفتاة كاعب يبزغ بين المصراعين وقد زادا انفراجا .

لقد فوجئت جرازيلا إبان نومها بصوت أخيها فلم يتهيأ لها الفكر ولا الوقت لكى ترتب ثيابها . واندفعت صوب النافذة حافية القدمين متهدلة الثياب بالحالة التي كانت عليها في مخدعها .

كان نصف شعرها الفاحم المرسل يتهدل على أحد خديها . والنصف الآخر يلتف حول جيدها تدفعه الريح التي تهب بشدة إلى الناحية الأخرى من كتفها . فيرتطم بالمصراع الموارب ثم يرتد ليصفق محياها ويبسطه مثل جناح غراب تعصف به العاصفة . .

كانت الفتاة تفرك عينيها بظهر يديها ، رافعة مرفقيها ، منتزعة كتفيها

يمثل تلك الحركة الأولى التى يأتيها طفل يستيقظ ويروم أن يطرد النوم.
كان قميصها ، المعقود حول عنقها ، يشف عن قوام فارع نحيل لا تكاد
تتشكل فيه تحت الثوب بواكير تموجات الشباب . وكان لعينيها
النجلاوين ذلك اللون التائه بين السواد الداكن وزرقة البحر ، الذى
يلطف سنا الإشعاع بعذوبة النظرة ، ويمزج فى عيون المرأة بنسبة
متساوية حنان الروح بحدة الشهوة : صبغة علوية تشربها نساء آسيا
وإيطاليا من لهيب نارهن اللافح ، ومن لازورد سمائهن وبحرهن وليلهن
الصافى . وكان الخدان ممتلئين ملفوفين ، أثيلين ، مشربين بسمرة من الجو
مكسوين بمسحة من شحوب لكنه ليس شحوب الشمال وليد العلة بل
بياض الجنوب وليد الصحة الشبيه بلون المرمر المعرض للهواء والموج
منذ عصور .

أما الفم ، الذى كانت شفتاه أشد انفراجاً واكتنازاً من شفاه
نساء مناطقنا ، فكانت ترتسم عليه علائم السذاجة والطيبة . وأما
ثناياها القصيرة ، المتلألئة ، فكانت تتألق على ضوء الشعلة الرجراج
تألق الأصداف على شاطىء البحر تحت لمسة الماء فى وهج الشمس . .

وبينما كانت تتحدث إلى أخيها الصغير ، كانت ألفاظها الحية
ذات الجرس ، التى يذرو النسيم نصفها تصافح آذاننا فى مثل وقع
الموسيقا .

وانتقل سياؤها المتحرك تحرك ضوء الشعلة التى تنيره . انتقل فى دقيقة واحدة من الدهش إلى الفزع . ومن الفزع إلى المرح . ومن الحنان إلى الضحك . ثم لمحتنا وراء جذع شجرة التين الضخمة . فتراجعت من النافذة مستحيية وتخلت يدها عن المصراع الذى طفق يصطفق بالجدار بلا عائق . ولم تغب من الوقت إلا ريثما توقظ جدتها وترتدى بعض ثيابها . ثم جاءت تفتح لنا الباب . وتعانق جدها وأخاها فى انفعال شديد .

— ٢٠ —

وما لبثت الجدة أن ظهرت ممسكة بيدها قنديلا من الفخار ينير وجهها النحيل الشاحب وشعرها الأبيض بياض شلال الصوف المكورة على المنضدة حول مغزلها .

وقبلت يد زوجها وجبين الصبى . ثم رويت كل القصة التى تتضمنها هذه السطور فى بضع كلمات . وبضع إشارات تبادلها أفراد تلك الأسرة المقلة . ولم نكن نسمع كل شىء . فقد انتحينا جانباً كيلا نعرقل فضفضة مضيفينا القلبية . كانوا فقراء وكنا غرباء : فكنا مدينين لهم بالاحترام .

وكان موقفنا المتحفظ فى المؤخرة وعلى مقربة من الباب ينبئهم بهذا الاحترام فى سكون .

وكانت جرازيلا تلقى علينا من آن لآن نظرة دهش وكأنها مستغرقة فى حلم . وعندما انتهى الأب من روايته ، جثت الجدة بجوار المدفأة ،

وصعدت جرازيلا إلى الشرفة ، وأحضرت غصن حصا البان ، وبضعة من أزهار البرتقال ذات النجوم الكبيرة البيضاء ، وتناولت مقعداً ، وعلقت الطاقة بدبابيس طويلة جذبتها من شعرها ، أمام تمثال صغير للعذراء مشوب بسواد من الدخان ، موضوع فوق الباب ، وموقد أمامه مصباح . ففهمنا أن هذا إجراء حمد وثناء لحاميتها الإلهية إذ أنقذت جدها وأخاها ، وأخذنا نصيبنا من شكرها وعرفانها .

— ٢١ —

كان داخل المنزل لا يقل تجردا ولا مماثلة للصخر عن خارجه . لم يكن ثمة سوى الجدران غير المطلية ، والمبيضة فقط بقليل من الجير . وكانت العظايات (السحالى) التى أيقظها النور تتسرب وتخشخش فى صدوع الأحجار وتحت الأوراق والأحطاب التى اتخذت مضاجع للأطفال الصغار . وكانت أوكار عصافير الجنة التى يرى المرء الرءوس الصغيرة السوداء تبرز منها والعيون القلقة تبرق فيها — كانت معلقة على عروق الخشب المغطاة بالقش التى تكون السقف . وكانت جرازيلا وجدتها تنامان معاً فى الغرفة الثانية على سرير واحد مغطى بنتف من قماش الشراع . وكانت سلال الفاكهة وبرذعة بغل ملقاة على أرضية الغرفة . .

والتفت الصياد صوبنا فى مسحة من خجل ، ومشيرا لنا بيده إلى حقارة مسكنه ، ثم اقتادنا إلى الشرفة ، مقصورة الشرف فى الشرق وفى جنوب إيطاليا . وبمعاونة الصبى وجرازيلا أعد مايشبه الظلة عن طريق إسناد أحد طرفى مجاديفنا على سياج الشرفة والطرف الآخر على الأرضية . وغطى هذا المخبأ ببعض حزم من أشجار الكستناء المقطوعة حديثا من الجبل . ثم فرش تحت هذه الظلة بضع حزم من الأحطاب ، وجاءنا بكسرتين من الخبز ، وبعض الماء القراح والتين ، ودعانا إلى النوم .

وكان من شأن متاعب اليوم وانفعالاته أن جعلت نومنا مباغتا وعميقا . ولما استيقظنا كانت عصافير الجنة تتصايح حول فراشنا وتسف الشرفة لتختطف منها فضلات عشائنا ، وكانت الشمس التى علت فى السماء تلهب حزم الأوراق التى اتخذنا منها سقيفة فتجعلها كالفرن .

لبثنا طويلا مستلقين على الأحطاب ، فى حالة الإغفاء هذه التى من شأنها أن تهيىء للإنسان المعنوى أن يشعر وأن يفكر قبل أن تواتى الشجاعة الإنسان الحسى أن ينهض وأن يعمل . وتبادلنا بضع كلمات فى همهمة مبهمة قطعتها فترات سكون مستطيلة ، وراحت أضغاث أحلام صيد أمس ، والقارب المتأرجح تحت أقدامنا ، والبحر الهائج الهادر والصخور الزلقة الكأداء ، ومحيا جرازيلا بين مصراعين فى ضوء الشعلة : كل هذه الصور كنا نراها تتشابك وتتلبد وتمتزج .

خرجنا من هذه الغفوة أشبح الجدة المسنة وتبكيتها إذ كانت تتحدث إلى زوجها في المنزل . كانت المدخنة التي تخترق قمتها الشرفة تحمل إلينا الصوت وبعض الألفاظ .

وكانت المرأة البائسة تندب وتولول على خسارة الجرار ، والحامية والحبال الجديدة ، وعلى الأخص الشراعين الجميلين المغزولين بيدها ، والمنسوجين من قنبها ، وقد بلغ من وحشيتنا أن رميناها جميعا لكي تنقذ حيواتنا .

كانت تقول للشيخ المحطم الواجم الملجم « ماذا دهاك حتى تستصحب هذين الغريبين ، هذين الفرنسيين ؟ أما كنت تدري أنهما وثنيان ، وأنهما في ركابهما النحس والزندقة ؟ لقد عاقبك القديسون ، فبددوا ثروتنا ، ألا فلنشكرهم على أنهم لم يدمروا روحنا . »

لم يكن الرجل التعس يدري بماذا يجيب . بيد أن جرازيلا ، بالإباحة وفراغ الصبر المخولين لطفل تسمح له جدته بكل شيء ، انبرت ثائرة على هذا التأنيب الجائر ، وظاهرت الشيخ فردت على جدتها قائلة : « من الذي قال لك إن هذين الغريبين وثنيان ؟ هل للوثنيين مثل هذا المظهر من الإشفاق على الفقراء من الناس ؟ هل يرسم الوثنيون مثلنا علامة الصليب أمام صور القديسين ؟ وبعد . . أقول لك إني رأيتهما

أمس ، عندما جثوت شاكرة لله ، وعندما علقت أنا الطاقة فى تمثال العذراء — رأيتهما يطأطئان الرأس كأنهما يصليان ، ويرسمان على صدريهما علامة الصليب ، بل لقد لمحت دمعة تترقرق فى مقلة أصغرهما سناثم تنحدر على يده » — فأجابتها السيدة العجوز فى حدة « لقد كانت قطرة من ماء البحر انحدرت من شعره » فردت جرازيلا فى غضبة « وأنا أقول لك إنها كانت دمعة : فإن الريح التى كانت تعصف كان لديها متسع من الوقت لـكى تجفف شعرهما من الساحل لغاية قمة الشاطىء . ولـكن الريح لا تجفف القلب . وبعد . . فإنى أكرر لك أن عيونهما كانت مخضلة . »

فأدركنا أن لنا فى الدار نصيرة قادرة ، لأن الجدة لم ترد ولم تعد تتمتم متذمرة .

— ٢٢ —

عجلنا بالنزول لنشكر الأسرة المملقة على ما أولتنا من كرم وفادة . ووجدنا الصياد ، والأم العجوز ، وبيبو ، وجرازيلا ، بل الأطفال الصغار أيضاً متأهبين للنزول تجاه الشاطىء لزيارة القارب المتروك أمس ، ورؤية ما إذا كان مشدوداً بما يـكفى لمواجهة الجو الردىء ، لأن العاصفة كانت لا تزال مستمرة ، نزلنا معهم ، غاضى الجبين ، خجولين ، شأننا شأن ضيوف حلوا فى أسرة فسببوا لها حادثاً مشئوما ، وليسوا واثقين من المشاعر التى يضمرها لهم أهل الدار .

كان الصياد وزوجته يتقدماننا ببضع خطوات ، تقفوهما جرازيلا

ممسكة أحد أخويها الصغيرين بيدها، وحاملة الآخر على ذراعها، وتبعناهم نحن فى المؤخرة صامتين. ولدى آخر منحنى لأحد المتدرجات يرى الرائى منه ملساء الشاطئ التى كان تتوء صخرة لا يزال يحول دون أن نراها، سمعنا صرخة ألم تنطلق من فم الصياد ومن فم زوجه فى وقت واحد. ورأيناهما يرفعان سواعدهما العارية صوب السماء، ويقلبان أكفهما فى تشنجات اليأس، ويلطمان جبهتيهما وعيونهما بقبضة اليد، وينتزعان خصلا من شعرهما الأشيب جعلت تذروها الريح وهى تدوم بين الصخور . .

ولم تلبث جرازيلا والأطفال الصغار أن خلطوا أصواتهم بهذه الصراخ. هرع الجميع كالمجانين يجتازون آخر درجات المتدرج صوب صخور الشاطئ، وتقدموا لغاية حواشى الزبد التى تدفعها الأمواج العاتية إلى البر، وهووا على الساحل، بعضهم جاثيا على ركبتيه، والبعض الآخر منكفئا على وجهه، والسيدة العجوز تعتمد وجهها براحتيها وتعفر رأسها فى الرمل الرطب.

كنا نتأمل مشهد اليأس هذا من فوق آخر رأس مستدق دون أن تواتينا القوة على التقدم أو التراجع. كان القارب، وقد شد إلى الصخرة، ولكن دون هلب فى المؤخرة ليحتجزه ويستبقيه — كان قد انتزعه الموج أثناء الليل وتحطم على أسنة الصخور التى كان مفروضا أن تحميه. كان نصف القارب المنكود ما فتئ مشدوداً بالحبل إلى الصخرة حيث ربطناه البارحة. كان يتخبط فى أنين مشئوم

شبيه بصوت الآدميين عند النزع الأخير إذ يخفت ويئول إلى تهدج مختنق يائس .

وكانت الأجزاء الأخرى من جدران القارب ، والمؤخرة ، والشراع ، والجوانب ، والألواح المطلية منثورة على الساحل شذر مذر ، شبيهة بأشلاء الجثث التي مزقتها الذئاب الضارية عقب معركة .

وعندما بلغنا الساحل كان الصياد الشيخ مشغولا بالعدو من حطام إلى حطام . كان يرفعها ويتملى فيها بعين جفت مآقيها ، ثم يدعها تسقط تحت قدميه ، ويبعد . وكانت جرازيلا تنتحب ، جالسة على الأرض ، دافنة رأسها في مئزرها . وكان الأولاد يركضون بسيقانهم العارية في البحر صائحين وراء أنقاض الألواح . محاولين توجيهها نحو الساحل .

أما السيدة العجوز فلم تكف عن النشيج وعن التحدث وهي تنشج ، لم تلتقط أسماعنا سوى أصوات مبهمة وأنات مقطعة تشق الهواء شقا وتفرى القلب فريا . كانت تصرخ شاتمة مشيرة إلى الأمواج بقبضة يدها : « أيها البحر المتوحش .. أيها البحر الأصم .. أيها البحر الآمن من شياطين جهنم .. يا من لا قلب لك ولا شرف .. ليتك أخذتنا نحن .. نحن جميعا .. ما دمت قد سلبتنا مصدر قوتنا .. خذ .. خذ .. خذ .. خذني على الأقل مقطعة الأوصال ، ما دمت لم تأخذني بأكملي ! .. »

وبينما كانت تنطق بهذه الكلمات ، كانت تنهض على قعدتها ، وترمى فى البحر قطعا من ثوبها وخصلا من شعرها . وكانت تلوح للبحر مهددة متوعدة ، وتطأ الزبد بقدميها ، وبعد أن انتقلت من الهياج إلى النواح ، ومن التشنج إلى الحنو ، عمدت إلى الجلوس على الرملة معتمدة جبينها بيديها ، ناظرة إلى الألواح المنفصلة ترتطم بالصخرة وهى باكية منتحبة . كانت تصيح كأن هذا الحطام أوصال مخلوق عزيز لا يكاد يكون مجرداً من الشعور : « أيها القارب التعس . . أهذا هو المصير الذى كنا ندين به لك ؟ أفلم يكن واجبا علينا أن نهلك معك ؟ أن نهلك معا كما عشنا معا ! أن نهلك هنا أشلاء ، حطاما ، ترابا ، صارخين ، أمواتا ، على الصخرة حيث ناديتنا طول الليل ، وحيث كان من واجبنا أن ننقذك ! ترى ما رأيك فينا ؟ لقد خدمتنا أحسن ما تكون الخدمة ، فإذا بنا نخذلك ، ونتخلى عنك ، ونضيعك . نضيعك هنا ، على قيد خطوات من المنزل ، وعلى مسمع من صوت سيدك ! ملقى على الشاطئ بجثة كلب أمين يطرحه الموج عند قدمى سيده الذى أغرقه !

ثم خنقت عبراتها صوتها ، ثم أنشأت تعدد مزايا قاربها واحدة فواحدة ، وتحصى كل ما كلفهم من مال ، وكل ما كانت تربطها بهذا الحطام التعس الطافى من ذكريات . كانت تقول : أكان لأجل هذا أننا رممناه أحسن ترميم وطليناه خير طلاء بعد صيد التونة الأخير ؟ أكان لأجل هذا أن ابنى البائس — قبل أن يقضى نحبه ويخلف لى أولئك الأطفال الثلاثة بلا أب ولا أم — قد شيده كله تقريبا بيده باذلا مزيد عنايته وغاية حبه ؟ عند ما كنت أجىء لآخذ السلال من قاعه

كنت أتعرف ضربات « قدوم » ابنى فى الخشب ، فأقبلها تخليداً لذكره .
وها هى ذى ستقبلها الآن كلاب البحر وسرطانه . .

خلال أيام الشتاء كان قد حفر هو نفسه بمديته صورة القديس فرنسوا على لوح من الألواح ثبته فى المقدمة لتقيه شر الجو الردىء .
يا للقديس القاسى الفؤاد ! كيف أبدى شكره وعرفانه ؟ . . ماذا فعل بابنى ، وبزوجه ، وبقاربه الذى تركه لنا من بعده لنكسب قوت أولاده البؤساء ؟ وكيف وقى نفسه هو ، وأين هى صورته ، ألعوبة الأمواج ؟ « .

وصاح واحد من الطفلين ، وهو يلتقط على الشاطىء ، من بين صخرتين ، شظية من القارب انحسرت عنها موجة « أماه . . أماه . .
هاهو ذا القديس . . » وإذا المرأة التعسة تنسى غضبها كله ، وتخرصاتها كلها ، وتقذف نفسها فى الماء حافية نحو الطفل ، وتتناول شظية اللوح التى حفرها ابنها ، وتلصقها بشفتيها ، وتغرقها بعبراتها . ثم ذهبت فقعدت ولاذت بالصمت .

— ٢٣ —

عاونا بيبو والشيخ على جمع جميع قطع القارب واحدة واحدة .
وجذبنا قاعدته المبتورة أقرب إلى الساحل مما كانت ، وأقمنا من حطامه هذا كومة مازال يمكن أن ينتفع ببعض ألواحها وحدائدها أولئك القوم البؤساء . ودحرجنا بعض الحجارة الضخمة ووضعناها فوقها حتى لا تبدد الأمواج إذا علت بقايا القارب العزيزة هذه ، وعدنا

أدراجنا إلى المنزل سائرين فى أسى وعلى مبعدة وراء مضيفينا . ولم تكن غيبة القارب وحالة البحر تسمحان لنا بالرحيل .

وبعد أن تناولنا ، وقد غضضنا الطرف ولم ننبس ببنت شفة ، كسرة من الخبز وبعض لبن الماعز الذى جاءتنا به جرازيلا على كثب من النبع ، تحت شجرة التين، تركنا المنزل لمناحته ، وانطلقنا نتجول بين عرائش الكرم العالية وتحت شجر الزيتون فى هضبة الجزيرة الشاهقة . .

— ٢٤ —

كنا لا نكاد نتحادث ، صديقى وأنا ، لكن كانت تراودنا فكرة واحدة ، فسلكنا بالغريزة كل الدروب المفضية إلى رأس الجزيرة الشرقى والتى لابد توصلنا إلى مدينة بروسيدا القريبة . وأعادنا عدة مرات إلى الطريق الصحيح بعض رعاة الماعز ، وبعض الفتيات المرتديات زياً يونانياً ،اللائى صادفناهن حاملات فوق رءوسهن الزيت . . وبلغنا المدينة بعد مسيرة ساعة . .

وأخيراً قال لى صديقى « هذه لعمرى مغامرة مؤسفة » . فأجبته قائلا : « يجب أن نحولها إلى فرحة لأولئك القوم الأخيار » فاستأنف ، وهو يخشخش فى منطقته الجلدية عدداً طيباً من الدنانير الذهبية « كنت أفكر فى ذلك » . . . — « وأنا أيضاً ، بيد أنه ليس فى كيس نقودى سوى خمسة دنانير أو ستة ، ومع ذلك فقد تسببت فى نصف الشر ، فلا مناص من أن أتحمل نصف التعويض » . فقال صديقى : « أنا أكثر

منك مالا ، ولى رصيد لدى صاحب مصرف فى نابولى . سأقدم كل مايلزم . وسوف نسوى حسابنا فى فرنسا . »

— ٢٥ —

وبينما نحن نتحادث على هذا المنوال ، كنا نهبط بخفة فى شوارع بروسيدا المنحدرة . ولم نلبث أن بلغنا « البحرية » فكذلك يسمى الساحل المجاور للشرم أو للمرفأ فى الأرخبيل وعلى شواطئ إيطاليا . كان الساحل مغطى بقوارب إيسكيا وبروسيدا ونابولى التى اضطرتها عاصفة البارحة إلى التماس ملاذ فى أمواهه . وكان النوتية والصيادون ينامون فى وهج الشمس ، وفى هدير الموج المستهدئ ، أو يتحدثون فى جماعات جلوساً على الرصيف . ومن ثوبينا ، وقلنسوتينا الصوفيتين الحمراوين اللتين تغطيان شعرنا ، حسبونا فتيين نوتيين من توسكانيا أو جنوة أنزلتهما فى بروسيدا إحدى السفن التى تحمل الزيت أو النبيذ من إيسكيا .

جسنا خلال «البحرية» نبحث بالعين عن قارب متين حسن العمرة والعدة ، يستطيع شخصان أن يديراه بسهولة ، وتكون مقاييسه وقوالبه أقرب مايمكن إلى القارب الذى فقدناه . ولم نجد مشقة فى العثور عليه . كان يتبع صياداً غنياً من الجزيرة يملك قوارب كثيرة غيره . ولم يكن هذا القارب قد استعمل بعد سوى بضعة أشهر . فقصدنا إلى المالك الذى أرشدنا إلى مرساه صبية الميناء .

كان هذا الرجل مرحا ، مرهف الحس ، طيباً . وقد تأثر للقصة

التى سردناها عليه بشأن كارثة الليل ويأس ابن جلدته البائس . إلا أنه لم يخفض قرشاً من ثمن قاربه ، وإن لم يغال قط فى قيمته ، وتمت الصفقة لقاء اثنين وثلاثين ديناراً ذهبياً دفعها له صديق نقداً . وبوساطة هذا المبلغ أمسى القارب وعدة جديدة تماماً من أشرعة ، وسلال ، وحبال وهلب حديدى — أصبح هذا كله ملكنا .

بل إننا استكملنا تجهيزه بأن اشترينا من أحد دكاكين المرفأ معطفين من الصوف الأصهب ، أحدهما للشيخ والآخر للصبى ، وأضفنا إليه بعض الشباك من مختلف الأنواع ، وبعض سلال السمك ، وبعض الأدوات المنزلية الغليظة مما تستعمله النساء . واتفقنا مع تاجر القوارب على أن ندفع له فى اليوم التالى ثلاثة دنانير ذهبية إذا اقتيد القارب فى اليوم نفسه إلى النقطة التى عيناها على الشاطئ . وإذ كان النوء يهدأ ، وأرض الجزيرة المرتفعة تحمى البحر من الريح فى هذه الناحية نوعاً ما ، فقد تعهد الرجل بذلك ، وقفلنا راجعين براً إلى دار أندريا ..

— ٢٦ —

جعلنا نقطع الطريق الهوينا ، نجلس تحت الأشجار ، ونستظل فى الخمائل ، نتكلم ، ونحلم ، ونساوم جميع فتيات بروسيدا فيما يحملن من سلال التين ، والبشملة ، والعنب ونفسح الوقت للساعات كيما تمر . وإذا بنا ، من فوق رأس من الرءوس ، نبصر قاربنا ينسرب متلصصاً تحت ظل الشاطئ ، فغذينا المسير لكى نصل فى وقت واحد مع المجدفين .

لم يكن يسمع السامع خطوة ولا صوتا فى البيت الصغير والكرمة التى تحيط به . وكانت حمامتان جميلتان ذواتا أرجل كبيرة يكسوها الزغب وأجنحة رقطاء ، تلتقطان حب الأذرة على سور الشرفة — كانتا علامة الحياة الوحيدة التى تدب فى البيت . وصعدنا إلى السطح فى غير ما ضجيج ، فوجدنا الأسرة فوقه تأخذها سنة من سبات عميق . وكان الجميع ، خلا الطفلين اللذين استراح رأساهما الجميلان جنبا إلى جنب على ساعد جرازيلا ، ينامون فى حالة الإنهاك الناشئ عن فرط الألم .

كانت الأم العجوز معتمدة رأسها بركبتيها ، وتنفسها الهادئ يبدو كأنما لا يزال مختلطا بالنشيج .

وكان الأب مستلقيا على ظهره ، وقد عقد ذراعيه فوق صدره فى وهج الشمس .

وكانت عصافير الجنة تسف شعره الرمادى اللون فى حومانها السريع ، وكان الذباب يغطى جبينه الناضح بالعرق . وكان خطان محفوران متعرجان ومنحدران حتى فم الرجل ينمان عن أن قواه انهارت وأنه وجد السكينة فى الدموع .

وقد فرى هذا المشهد قلبينا فرياً ، بيد أن فكرة السعادة التى سوف نردها لأولئك القوم التعساء كانت لنا سلوة وعزاء ، أيقظناهم ، وألقينا فوق أقدام جرازيلا وأخويها الصغيرين ، على أرضية السطح ، ما كنا قد وسقناه فى الطريق من خبز طازج ، وجبن ، وقديد وعنب ، وبرتقال وتين . ولم تجرؤ الفتاة والطفلان على النهوض فى غمرة هذا الغيث من الخير الوفير الذى انهمر حولهم كأنما من السماء . وشكرنا

الآب نيابة عن أسرته . وشاهدت الجدة كل ذلك بعين خابية كالحة وكان التعبير المرتسم على سيمائها أقرب إلى الحنق منه إلى عدم المبالاة .

قال صديقى للشيخ « هيا ، يا أندريا ، يجب ألا يبكى الرجل من تغير ما يمكن أن يعوضه بشيء من العمل والشجاعة . فثمة ألواح فى الغابات والآجام وأشرعة فى القنب الذى ينبت . وما من شيء لا ينبت من جديد إلا حياة الإنسان التى تبليها الأحزان . وإن يوماً واحداً من الدموع ليستنفد من القوة ما لا يستنفده عام من العمل . هيا انزل معنا وبرفقتك زوجك وأولادك . نحن نواتيك ، وسوف نعاونك على أن ترفع هذا المساء إلى الفناء حطام قاربك الغريق . وسوف تصنعون منه أسياجاً ، وأسرة ، ومناضد ، وأثاثاً للأسرة . ولسوف يسعدك يوماً أن تنام فى شيخوختك هادئاً وسط هذه الألواح التى طالما هدهدتك فوق الأمواج : فغمغمت الجدة فى صوت جامد « ليتها تكفى فقط لصنع نعوش لنا . »

— ٢٧ —

وعلى أثر ذلك نهضوا ، وتبعونا جميعاً هابطين متدرج الشاطىء على مهل ، ولكننا لاحظنا أن منظر البحر وهدير الموج كان لها فى نفوسهم وقع سيء ، ولن أحاول وصف ما تولى أولئك القوم من دهش واغتباط عند ما رأوا من فوق آخر درجات المتدرج . القارب الجديد الجميل يتلألأ فى وهج الشمس وقد جر على الرملة بجوار حطام القارب القديم ، وقال لهم صديقى « إنه لكم ! » ، لقد خروا جميعا ساجدين كأنما انقضت

عليهم صاعقة واحدة من الغبطة . كل منهم على الدرج الذى كان عليه، ليشكروا الله ، قبل أن تسمعهم ألفاظهم لكى يشكرونا نحن . ولكن كان حسبنا من الشكر سعادتهم .

ونهضوا ثانية على صوت صديقى الذى ناداهم . وعدوا فى أثره إلى القارب . وداروا حوله أول الأمر عن بعد وبتهيب كما لو كانوا موجسون خشية أن يكون شيئاً وهمياً وأن يتلاشى بما يشبه السحر . ثم دنوا منه عن كثب . ثم أنشأوا يلمسونه ويرفعون اليد التى لمسته إلى جباههم وشفاههم . وأخيراً جعلوا يطلقون عبارات الإعجاب والاغتباط ثم شبكوا أيديهم فى سلسلة ، ابتداء من السيدة العجوز إلى الأطفال الصغار ، وراحوا يرقصون حول القارب .

— ٣٨ —

كان بيبو أول من ركب متنه . جلس فى المحل الملاصق للمقدمة . وجعل يخرج من قاعه كل العدة التى ملأناه بها واحدة واحدة : العلب . الحبال، الجرار ذات الآذان الأربع، الأشرعة الجديدة الجميلة ، السلال، المعطفين الواسعى الأكمام . كان يرن العلب ، ويرفع المجاديف فوق رأسه وينشر القماش . ويفرك بين أصابعه وبر المعطفين الخشن . ويرى جدته وجده وأخته كل هذه الكنوز وهو يصيح ويرقص غبطة وجذلا . وكان الأب والأم وجرازيلا يبكون ويستعبرون وهم ينقلون نظرهم بين القارب وبيننا تباعاً .

وكان النوتية الذين أوصلوا القارب قد تواروا خلف الصخور يبكون أيضاً . كان الجميع يشكروننا ويثنون علينا . واقتربت جرازيلا

من جدتها . غاضة جبينها . مظهرة مزيداً من الجد فى شكرها . وسمعتها تهمس مشيرة إلينا بإصبعها :

«كنت تقولين إنهم وثنيون . وكنت أقول لك إنهم أخلق بأن يكونوا ملائكة فمن منا يا ترى كان على حق ؟ » فارتمت السيدة العجوز على أقدامنا . والتمست منا أن نصفح عن شكوكها . ومنذ تلك الساعة أحبتنا تقريباً بقدر ما كانت تحب حفيدتها أو بيبو .

— ٢٩ —

صرفنا نونية بروسيدا بعد أن نقدناهم الدنانير الثلاثة المتفق عليها وتكفل كل منا بأداة من الأدوات التى ازدحم بها قاع القارب . وحملنا إلى البيت كل ثروات الأسرة السعيدة هذه بدلا من حطام مالها . وفى المساء عقب العشاء ، وعلى ضوء المصباح ، نزع بيبو من وسادة سرير جدته شظية الخشب المحطمة التى كان أبوه قد حفر فيها صورة القديس فرنسوا فسواها مربعة بالمنشار ، ونظفها بمديته ، وصقلها وطلاها حتى استحالت جديدة . وأزمع أن يثبتها فى اليوم التالى فى طرف المقدمة الداخلى حتى يكون فى القارب الجديد نفحة من القارب القديم . كذلك كان الناس فى الزمن الخالى عند ما يشيدون معبداً مكان معبد آخر يعنون بأن يدخلوا فى بناء البنية الجديدة مواد المعبد القديم . أو على الأقل عموداً من أعمدته . حتى يكتسب الجديد نفحة من العراقة والقداسة . وحتى يكون للذكرى — البالية الغليظة فى ذاتها — رهبتها وهيبتها فى القلب بين آيات المحراب الجديد . إن الإنسان هو الإنسان حيثما كان . إن طبيعته المرهفة مجبولة دائماً على نفس الغرائز سواء تعلق الأمر

بالبارثينون أو بكنيسة سان بيير فى روما . أو بقارب حقير لصياد على ملساء شاطئ بروسيدا . »

— ٣٠ —

لعل تلك الليلة كانت أسعد الليالى التى كتبتها العناية الإلهية لهذا البيت منذ أن قد من الصخر إلى أن يؤول إلى تراب . لقد نمنا على لفحات الريح لأشجار الزيتون . وعلى هدير الموج على الشاطئ وعلى ضوء القمر يسحج شرفتنا . وعند ماصحونا كانت السماء صافية الأديم كالبللور المصقول . والبحر غامقاً مخططا بالزبد كأن الماء يتصبب عرقاً من سرعة الركض وفرط التعب . بيد أن الريح . وهى أكثر عتواً . كانت تعصف دائماً . وكان النثار الأبيض الذى تركه الأمواج على طرف رأس مسينا يزداد عن البارحة ارتفاعاً . كان يغرق شاطئ كوم بأسره فى مد وجزر من الضباب البراق لا يكف عن الارتفاع والانحسار ولم يكن الرائى يرى أى شراع يخفق على صفحة خليج جايتى ولا خليج بايا . وكانت خطاطيف البحر تصفع الزبد بأجنحتها البيضاء . وهى الطائر الوحيد الذى ينتشى فى العاصفة . ويصيح غبطة خلال حوادث الغرق ، شأنها شأن أهل خليج تريباسيه الملعونين أو أولئك الذين يترقبون فريستهم من السفن المشرفة على الغرق .

شعرنا دون أن نفصح بغبطة دفقة لأن حبسنا الطقس الردىء هكذا فى بيت الصياد وكرمته ، فقد أتاح لنا ذلك أن نتلذذ بموقفنا وأن نستمتع بغبطة تلك الأسرة الماثلة التى تعلقنا بها تعلق الأطفال .

استحجزتنا الرياح والأنواء هنالك تسعة أيام كاملة ولعلنا تمنينا .

وأنا على الأخص ، ألا تنتهى العاصفة قط ، وأن تلجئنا ضرورة قهرية وحتمية إلى إنفاق سنين عدة فى المكان الذى وجدنا فيه أنفسنا مأخوذين وسعداء إلى هذا الحد . كانت أيامنا على كل حال تجرى دون أن نشعر بها وعلى نسق رتيب . وهذا أصدق برهان على أن النزر القليل يكفى للسعادة حينما يكون القلب فتيا ويتمتع بكل شىء . كذلك فإن أبسط الأغذية تسند وتجدد حياة الجسد عندما تضفى عليها الشهية نكهة وتكون الأعضاء سليمة غضة . .

— ٣١ —

أن نصحو على زقزقة عصافير الجنة تسف سقفنا المقام من الأوراق فوق الشرفة حيث نمنا ، أن نسمع صوت جرازيلا الطفولى وهى تشدو فى الكرمة شدوا خفيتا مخافة أن تقلق نوم الغرباء ، أن ننزل مهرولين إلى الشاطئ لكى نغطس فى البحر ونسبح بضع دقائق فى شرم صغير يتألق رمله الدقيق من خلال شفوف ماء عميق ، لا تنفذ إليه حركة المد العالى ولا زبده ، ثم أن نصعد إلى البيت على مهل ونحن نجفف فى الشمس شعرنا وندفئ أكتافنا المبتلة من الحمام ، أن نفطر فى الكرمة بقطعة من الخبز والجبن الأبيض تحضرها الفتاة لنا وتشاطرنا قطعها ، أن نشرب ماء النبع الصافى الزلال الذى تغترفه جرازيلا وتملأ به الجرة الصغيرة التى تميلها على ذراعها وقد توردت وجنتاها حينما تلتصق شفاهنا بفوهتها ، ثم أن نعاون الأسرة فى ألف عمل ريفى بسيط بالمنزل والحديقة ، فنصلح أجزاء السور الذى يلتف بالكرمة ويسند الشرفة

وأن ننزع الأحجار الضخمة التى انحدرت فى الشتاء من فوق هذا السور على أعواد الكروم الصغيرة ، واقتحمت مكان القليل من المزروعات الممكن استنباتها بين الأعواد ، وأن نحمل فى السلال القرع العسلى الضخم الذى كانت الواحدة منه حمل رجل ، ثم أن نقطع مرائشه التى تكسو الأرض بأوراقها العريضة التى تعرقل السير بين فروعها المتشابكة وأن نشق بين كل صنف من الأعواد ، تحت الخمائل العالية ، قناة صغيرة فى الأرض الجافة كى يتجمع فيها ماء المطر من تلقاء نفسه ويرويها زمنا طويلا ، وأن نحفر للغرض نفسه مايشبه الآبار تحت أشجار التين والليمون على شكل أقماع : تلك كانت مشاغلنا فى الصباح حتى تسقط أشعة الشمس عمودية على السقف ، وعلى الحديقة الغناء وترغمنا على أن نلوذ بفىء الخمائل . كان الشفوف وانعكاس أوراق الكرم يصبغان ظلالها المفوفة بلون صارخ مموه بالذهب . .

الفصل الثانى

— ١ —

كانت جرازيلا تعود إلى الدار لتغزل بجوار جدتها أو لتعد وجبة منتصف النهار . أما الصياد الشيخ وبيبو فكانا ينفقان النهار بطوله على شاطئ البحر فى تنظيم القارب الجديد ، فى تزويده بالاستكمالات التى يوحيها لهما شغفهما بملكهما الجديد ، وفى تجربة الشباك فى ظل الصخور . وكانا يجلبان لنا دائما ، لوجبة الظهر ، بعض سرطان البحر وثعبانه ذات القشور التى يفوق لمعانها لمعان الرصاص المصهور . وكانت الأم تقليها فى زيت الزيتون . وكانت الأسرة تحتفظ بهذا الزيت ، وفقا لعادة البلد ، فى بئر صغيرة محفورة فى الصخرة القريبة من البيت ، مغلقة بحجر ضخم مثبت فيه حلقة من حديد . وكانت بضع خيارات مقلية أيضا ومقطعة إلى شرائح فى المقلاة ، وبعض المحار الطازج شبيه « الميديا » والذى « يدعى فاكهة البحر » كانت تأتلف منها هذه الوجبة الشهية ، الوجبة الرئيسية ، وأدسم وجبات اليوم . وكان بعض العنب « الموسكات » ذى العناقيد الصفراء المستطيلة ، الذى قطفته لنا جرازيلا فى الصباح ، وحفظته فوق أغصانه وغطته بأوراقه ، وقدمته لنا على

سلال مسطحة من الخيزران المجدول — كان يؤلف الحلوى . وكان عود أو عودان من الكرفس الأخضر النيء المغموس فى الفلفل ، والذى تعطر رائحة أنسونه الشفاه وتنشى القلب — يقوم مقام الشراب والقهوة ، طبقا لعادة نوتية نابولى وفلاحيها . وبعد الغداء كنت أمضى وصديقى ننشد ظلة دانية على قمة الصخرة مطلة على البحر وشاطىء بايا ، لننفق فيها وقت القيلولة فى التأمل والتخيل والمطالعة حتى ساعة الأصيل .

— ٢ —

لم نكن قد أنقذنا من الأمواج سوى ثلاثة مجلدات فريدة ، ذلك أنها لم تكن فى حقيبتنا عندما رميناها فى البحر : كان أحدها كتيبا إيطاليا المؤلف أوجو فوسكولو عنوانه « رسائل جاكوبو أورتيس » هو أشبه شىء بفرتير نصفه سياسى ونصفه روائى ، تختلط فيه عاطفة شاب إيطالى نحو بلاده بعاطفته نحو « فينيسية » حسناء . إن الحماس المزدوج الذى تغذيه نار العاشق والمواطن المزدوجة هذه ، تذكى فى روح أورتيس حمى لا يتحمل نوبتها الشديدة رجل مرهف الحس مستقام فتفضى به إلى الانتحار . كان هذا الكتاب . وهو نسخة حرفية لكن منمقة وواضحة من « فرتير » الذى ألفه جوته — كان يدور فى يد جميع الشبان الذين يراودهم . مثلنا ، هذا الحلم المزدوج لأولئك الخليقين بأن يحلموا بشىء عظيم : الحب والحرية .

— ٣ —

عبثاً كان بوليس بونابرت ومورا يصادر الكتاب ويضطهد المؤلف . فقد كان قلب الوطنيين الإيطاليين كافة ، وأحرار أوربا قاطبة كنفاً للمؤلف . وكان صدر جميع الشباب مثلنا محراباً للكتاب إذ كنا ندسه فى صدورنا لنتنسم مبادئه ، وكان أحد الكتابين الآخرين اللذين أنقذناهما « بول وفرجيني » لبرناردان دى سان بيير . دستور الحب البرىء هذا وكان الآخر كتاباً لتاسيت . صفحات ملطخة بالفسق وبالعار والدم . لكن فيها تمسك الفضيلة الرواقية منقاش التاريخ وعدم تأثره الظاهرى لتوحى إلى أولئك الذين يفهمونها كراهية الطغيان . وقوة الخواتيم العظيمة . والتعطش للميتات الكريمة .

كانت هذه الكتب الثلاثة بمحض الصدفة تتجاوب مع المشاعر الثلاثة التى كانت منذئذ ، كأنما بالحدس ، تختلج فى نفوسنا الشابة : الحب ، الحماس لتحرر إيطاليا وفرنسا ، وأخيراً الشغف السياسى وسير عظائم الأمور التى رسم تاسيت لنا صورتها ، ومن أجلها غمس أرواحنا مبكراً فى دم فرشاته وفى نار الفضيلة القديمة . كنا نقرأ بصوت عال ، كل بدوره ، معجبين تارة ، باكين تارة ، وحالمين تارة أخرى . وكنا نقطع هذه المطالعات بفترات صمت طويلة ، وصيحات تعجبية متبادلة ، كانت لدينا بمثابة تفسير عفو الخاطر لمشاعرنا ، وكانت تذهب مع أحلامنا أدراج الرياح .

— ٤ —

كنا نضع أنفسنا بالفكر فى بعض المواقف التى يسردها لنا الشاعر أو المؤلف ، خيالية كانت أو حقيقية . كنا نتخذ لأنفسنا مثلا أعلى

للعاشق أو المواطن . للحياة السرية أو للحياة العلنية . للغبطة أو للفضيلة .
كان يستهوينا أن نمزج تلك الظروف المظيمة . تلك المصادفات العجيبة
فى أزمان الثورة ، التى تكشف فيها العبقرية للجماهير أكثر الناس خمول
ذكر وتستدعيهم – كأنما بالاسم – لمكافحة الظلم وإنقاذ الأمم ،
ثم يروحون ضحية لتقلب الشعوب وجحودها ، فيعدمون شنقا ، على
مرأى من الزمن الذى يقلب لهم ظهر المجن . ومن الخلف الذى
يثأر لهم .

ما من دور ، مهما بلغ من البطولة إلا وجد أنفسنا فى مستوى
المواقف . كنا نعد أنفسنا لكل أمر ، وإن لم يحقق الحظ يوما هذه
المحن الكبرى التى خضناها بالفكر ، فقد كنا ننتقم منه سلفا بازدرائه .
كانت جوانحنا تنطوى على عزاء النفوس القوية هذا : لئن ظلت حياتنا
تافهة . عادية ، خاملة . فذلك لأن الحظ قصرت همته عنا . فلسنا نحن
الذين قصرت همتنا عن الحظ !

— ٥ —

عندما كانت الشمس تطفل للإياب كنا نقوم بجولات طويلة خلال
الجزيرة . كنا نخترقها فى كل اتجاه . وكنا نذهب إلى المدينة لابتياع
الخبز والخضر التى تعوز حديقة أندريا . وكنا أحيانا نجتلب بعض
الطباق . أفيون النوتى هذا ، الذى يحى همته فى البحر . ويفرج عنه
فى البر . وكنا نؤوب عند انسدال الليل وقد امتلأت جيوبنا وأيدينا
بتلك الهدايا المتواضعة . وكانت الأسرة تجتمع فى المساء فوق السطح
الذى يسمى فى نابولى « استريكو » فى انتظار حلول ساعة النوم . وما

من شيء في ليالي هـذا الإقليم الجميلة أبهج من مشهد السطح هـذا يسبح في ضوء القمر .

ففي الريف . يماثل المنزل المنخفض المربع قاعدة تمثال عتيقة تحمل زمراً من الأحياء وتماثيل تختلج بالأنفاس . إذ يصعد أهل المنزل جميعاً إلى السطح حيث يتحركون أو يجلسون في شتى الأوضاع . ويعكس ضوء القمر أو بصيص المصباح هذه الصور ويرسمانها في القبة الزرقاء . هنالك يرى الرائي الأم العجوز تقوم بالغزل ، والأب يدخن غليونا من فخار ذا أنبوبة من يراع . والفتيان يعتمدون على الحافة ويترنمون في أنغام مستطيلة بتلك الألحان البحرية والريفية التي تنطوي إيقاعاتها الممتدة والمؤثرة على مسحة من أنين الخشب يعذبه الموج أو صرير الجدجد « الصرصار » تلفحه الشمس . وأخيراً يرى الفتيات بثيابهن القصيرة وأقدامهن الحافية ، وستراتهن الخضراء المزركشة بالذهب أو بالخز . وشعورهن الفاحمة المرسلة السابغة فوق أكتافهن . والمعصوبة بمنديل معقود على العنق في عقد ضخمة لحماية شعرهن من التراب .

وكثيراً ما يرقصن هنالك . منفردات أو مع شقيقاتهن . فتمسك إحداهن قيثارة . وترفع الأخرى فوق رأسها دفا تحيط به صنوج (جلاجل) من نحاس . ولأن إحدى هاتين الآلتين شاكية خفيفة الوطأ والأخرى رتيبة صماء الوقع فهما تنسجان انسجاماً رائعاً لترجعا بلا افتنان اللحنين اللذين يتناوبان قلب الإنسان : الحزن والفرح . هاتان الآلتان يسمعهما السامع في ليالي الصيف فوق جميع أسطح الجزر تقريباً أو ريف نابولي . بل فوق القوارب . هذا النغم الهوائي الذي يتعقب الأذن من بقعة إلى بقعة . ابتداء من البحر حتى الجبل هو أشبه شيء

بطنين حشرة أخرى تولدها الحرارة وتدفعها إلى الطنين تحت هذه السماء الجميلة. هذه الحشرة التعسة هي الإنسان الإنسان الذي يتغنى بضعة أيام أمام الله بأهازيج شبابه وغرامه ثم يصمت إلى الأبد. ما استطعت أن أسمع هذه الأنغام الشائعة فى الهواء من فوق الأسطح إلا توقفت وإلا شعرت بضيق يهصر قلبي حتى ليكاد ينفجر من الفرح المكنون الدافق أو من الحزن الغلاب القاهر.

— ٦ —

كذلك أيضا كانت الأوضاع. والأنغام. والأصوات على شرفة سطح أندريا. فكانت جرازيلا تعزف على القيثارة. أما بيبينو فكان يصاحب شقيقته بالنقر بأصابعه على الدف الصغير الذى كان يستعمل فيما مضى لتنويمه فى المهد. ومع أن الأدوات كانت مرحة والأوضاع كانت أوضاع غبطة فإن الألحان كانت حزينة، والأنغام البطيئة القليلة تنفذ إلى شغاف المهجة الوسنانة. كذلك شأن الموسيقا حينما لا تكن تسلية فارغة للأذن. بل نشيجاً متسقاً للعواطف التى تنبثق من النفس عن طريق الصوت. فكل ألحانها زفرات. وكل أنغامها تسيل بالعبرات مع الإيقاع. فمحال أن تمس قلب الإنسان مسا قوياً دون أن يذرف الدمع، فإلى هـذا الحد تجد الطبيعة مترعة فى باطنها بالحزن والشجن. وإلى هذا الحد تجدها إن رجها أحد تطفح الثمالة على شفاهنا والغشاوة على أبصارنا!

— ٧ —

حتى عندما كانت الفتاة ، نزولا على إلحاحنا ، تنهض فى خفر لترقص الترانتلا على نغمة الدف الذى يدقه أخوها . دائرة حول نفسها مدفوعة بفعل الحركات الدائرية لتلك الرقصة الوطنية . رافعة ساعديها برشاقة ، مقلدة بأصابعها فرقعة الصنوج . ومسرعة دبيب أقدامها الحافية كأنه قطرات الغيث تساقط على الشرفة . نعم حتى عندئذ كان يخيم فى الجو . وفى الأوضاع . بل وفى سورة هذه النشوة المعتملة ، مسحة من الجد ومن الحزن . كأن كل غبطة ليست إلا جنونا عابراً . وكان اغتنام بارقة من السعادة يقتضى الشباب والجمال نفسهما أن يترعا بالنشوة لدرجة الدوار ، وأن يثملا بالحركة لدرجة الخبال !

— ٨ —

وكثيرا ما كنا نتبادل أطراف الحديث الجاد مع مضيفينا . فنجعلهم يقصون لنا حياتهم ، وتقاليدهم . أو ذكرياتهم العائلية . وكل أسرة إنما هى قصة بل قصيدة لكل من يعرف كيف يتصفحها . وكان لهذه الأسرة أيضا عراقتها . وثروتها ، وهيبتها فى الماضى البعيد .

كان جد أندريا تاجرا يونانيا من جزيرة إيجين . عمد الباشا حاكم أثينا إلى اضطهاده ، فرحل ذات ليلة مع زوجه ، وبناته وأبنائه ، وثروته على سفينة من السفن التى يملكها للتجارة ، التجأ إلى

بروسيدا حيث كان له وكلاء ، وحيث كان السكان يونانيين مثله .
وهنالك اشترى أملاكا واسعة درست واندثرت معالمها ما عدا المزرعة
الصغيرة التى كنا فيها ، واسم أجداده محفور على بعض المقابر فى مدافن
المدينة . وتوفيت البنات راهبات فى دير الجزيرة . وفقد الأبناء الثروة
فى الأنواء التى ابتلعت سفنهم . وآلت الأسرة إلى الاضمحلال . بل
إنها بدلت لقبها اليونانى الجميل بلقب مغمور لصياد من بروسيدا . كان
أندريا يقول لنا : « عندما يذل بيت بعد عز ينتهى الأمر إلى أن يكنس
لآخر حجر فيه ، فمن كل ما كان يقتنيه جدى لم يبق سوى مجذافى ،
والقارب الذى رددتماه إلى ، وهذا الكوخ الذى يعجز عن القيام بأود
أصحابه ، ونعمة الله . »

— ٩ —

وكانت الأم والفتاة تسألاننا أن نصارحهما بدورنا من نكون ،
وأين موطننا ، وماذا يعمل أهلنا ، وهل لنا أب ، وأم ، وأخوات ،
وإخوة وبيت ، وأشجار تين وكروم ، ولماذا تركنا وراءنا ذلك كله
ونحن فى مثل هذا الشباب لنأتى هنا لنجدف ونطالع ، ونكتب ، ونحلم
فى الشمس ، ونبيت على البر فى خليج نابولى ؟ عبثاً كنا نتكلم ، فإننا
لم نفلح قط فى إقناعهم بأننا جئنا كيما نتأمل السماء والبحر ، كيما نبخر
روحنا فى الشمس ، كيما نشعر بشبابنا يغلى فى دخيلتنا . وكيما نجمع أحاسيس
ومشاعر ، وأفكاراً لعلنا أن ننظمها فيما بعد فى أشعار كالتى يرونها
منظومة فى كتبنا . أو كالتى يرددها شعراء نابولى المرتجلين للنوتية فى
مساء الأحد على الرصيف أو فى المارجلينا .

وكانت جرازيلا تقول لنا ، وقد انفجرت فى الضحك: « أترمون إلى السخرية منى ؟ أنتم شعراء ؟ لكن شعركما ليس أشعث . وعيونكما لا تنفث شرراً مثل أولئك الذين يدعون كذلك على أرصفة البحرية أنتم شعراء ؟ ولا تعرفون أن تعزفوا نغمة واحدة على القيثارة ؟ بماذا إذن تصاحبون الأغانى التى تنشدونها ؟ ثم تهز رأسها هذا وتزم شفتيها شزراً ، وقد عيل صبرها لظنها أننا لا نريد أن نصارحها بالحقيقة .

— ١٠ —

وفى بعض الأحايين كان يعتمل بنفسها شك آثم فيلقى فى نظرتها شيئاً من الريبة وظلا من الخشية . وكنا نسمعها تهمس لجدتها بصوت خفيض « كلا هذا محال ، إنهما ليسا لاجئين مبعدين من بلادهما من جراء فعل كريه بغيض ، فإنهما يبلغان من الشباب والطيبة بحيث لا يعرفان الشر » . وعندئذ كنا نتسلى بأن نسرد عليها قصة بعض الجرائم المروعة التى نعزوها إلى أنفسنا . وكان التناقض بين جبيننا المشرقين . وعيوننا الصافية ، وشفاهنا الباسمة . وقلبينا المكشوفين . وبين الجرائم الوهمية التى زعمنا اقترافها — كان يجعلها تنفجر ضاحكة شأنها شأن شقيقها ويبدد بسرعة كل مجال للتوجس وعدم الثقة .

— ١١ —

وكثيراً ما كانت جرازيلا تسألنا عما نقرؤه طول النهار فى كتبنا وكانت تحسبها كتب صلوات . لأنها لم تكن ترى كتباً إلا فى الكنيسة

فى يد المؤمنين الذين يعرفون القراءة ويتابعون كلام الرهبان المقدس، كانت تظننا فى غاية التقوى، مادمنا ننفق أياما كاملة فى التمتمة بكلمات غامضة . بيد أنها كانت تتعجب لأننا لم نكن قساوسة أو كهنة فى مدرسة إكليركية بنابولى أو دير من الأديرة بالجزر . ولكى نزيل خطأها حاولنا مرتين أو ثلاث مرات أن نقرأ فقرات من فوسكولو وبعض مقتطفات جميلة من تاسيت ، مترجمين إياها إلى لغة البلد الدارجة.

كنا نحسب أن هذه الزفرات الوطنية للإيطالى المنفى ، وهذه المآسى الكبرى لروما الإمبراطورية سيكون لها وقع قوى فى نفس مستمعينا السذج ، لأن الشعب مفطور على الوطنية فى غريزته ، والبطولة فى عاطفته ، والفاجعة فى فطرته . فما يعلق بذاكرته هو على الأخص الانهيارات الكبيرة والميتات الجميلة . لكن سرعان مالاحظنا أن هذه الأقوال الرنانة وهذه المشاهد التى سيطرت على نفسينا لم يكن لها على هذه النفوس البسيطة أدنى أثر . إن عاطفة الحرية السياسية ، هذا المطمح لعلية القوم من أولى الفراغ ، لا ينزل إلى هذا الحد بين العامة .

لم يكن الصيادون الفقراء أولئك يدركون لماذا قنط أورتيس وانتحر ، مادام كان فى وسعه أن يستمتع بملذات الحياة الحقيقية كافة: التنزه دون مشغلة ، رؤية الشمس ـحب الطبيعة. والدعاء لله على ضفاف لابرنتا الخضراء الخصبة ، كانوا يقولون « أى مدعاة لأن يتألم المرء هكذا ويتعذب فى سبيل أفكار لا تنفذ حتى شغاف القلب : ماذا يهمه إن كان النمسويون أم الفرنسيون هم الذين يحكمون ميلانو ؟ إنه لجنون أن يتكبد مثل هذا الحزن والكمد من أجل مثل هذه الأمور . »

وما عادوا يسمعون .

أما تاسيت فكانوا أقل فهما له . فالإمبراطورية أو الجمهورية . وأولئك الناس الذين يتقاتلون ، بعضهم فى سبيل السيطرة والبعض الآخر لكيلا يعيش فى إسار العبودية . وهذه الجرائم فى سبيل العرش وهذه الفضائل فى سبيل المجد . وهذه الميتات فى سبيل الخلف ، كل ذلك لم يكن يؤثر فيهم مثقال ذرة . كان عندهم أشبه شىء بالرعد على مبعدة منهم فوق الجبل ، فهم يدعونه يقع دون أن ينشغلوا به لأنه لا يقع إلا على شوامخ الذرى ، فلا يهز شراع الصياد ولا دار الفلاح .

إن تاسيت ليس مشهورا إلا لدى رجال السياسة والفلاسفة . فهو أفلاطون التاريخ . وإن حساسيته لأرفع من أن يسيغها العامة . ولكى يدركه الإنسان ينبغى أن يكون قد عاش فى عجيج الميدان العام أو فى دسائس القصور الغامضة . احذف الحرية . والطموح . والمجد من هذه المشاهد ، فماذا يبقى منها ؟ أولئك هم الممثلون الثلاثة العظام فى مآسيه .

وعلى ذلك حاولنا أن نقرأ لهم . ذات مساء . بول وفرجينى . كنت أنا الذى أترجم هذا الكتاب وأنا أقرؤه . لأنى كنت قد اعتدت قراءته حتى حفظته ، إن جاز القول : عن ظهر قلب . ولما كنت قد ألفت اللغة الإيطالية نظراً لطول إقامتى فى إيطاليا . فإن التعابير كانت تسعفنى دون ما كلفة بل كانت تجرى على شفتى مجرى لغة الأم . وإن هو إلا أن بدأت هذه القراءة حتى تغيرت وجوه المستمعين وكساها

تعبير من الانتباه والخشوع ، وهى دلالة مؤكدة على تأثر الأفئدة .
كنا قد وقعنا على اللحن الذى يختلج بالإجماع فى نفس كل الناس ، فى كل الأزمان ، وفى كل الطبقات . اللحن المحسوس . اللحن الشامل .
اللحن الذى يتضمن فى نغمة واحدة حقيقة الفن السرمدية : الله، الطبيعة، والحب .

— ١٣ —

ما إن قرأت بضع صفحات حتى تغير وضع العجوزين . والفتاة ، والأطفال . نسى الصياد ، وقد اتكأ بمرفقه على ركبته وأرهف أذنه نحوى ، نسى أن ينشق دخان غليونه . واعتمدت الجدة العجوز ذقنها بيديها وقد جلست قبالتى ، فى وضع فقيرات النساء اللواتى ينصتن لكلام الله جالسات القرفصاء على بلاط المعابد . وهبط بيبو من فوق سور الشرفة حيث كان يقعد . ووضع قيثارته فى سكون على الأرض . وجعل راحة يده على مقبض القيثارة خشية أن تدفع الرياح الأوتار إلى الرنين . أما جرازيلا . التى كانت تظل عادة مبتعدة قليلا . فقد أنشأت تقترب منى على نحو غير محسوس كأنها مفتونة بقوة جاذبية خفية فى ثنايا الكتاب .

كانت مستندة على سور الشرفة الذى كنت متمدداً تحته ، فطفقت تزداد دنواً منى ، متكئة على يدها اليسرى التى تدلت على الأرض فى وضع المصارع المجروح . وكانت تنظر بعينيها النجلاوين المفتوحتين حينا إلى الكتاب . وحينا إلى شفتى اللتين تسيل منهما القصة ، وحينا إلى ما بين شفتى والكتاب من فراغ ، كأنها تبحث بنظرها عن الروح

الخفى الذى يترجمه لى . وكنت أسمع أنفاسها المضطربة تتقطع أو تلهث حسب اختلاجات المأساة . شأنها شأن أنفاس مبهورة لامرىء يصعد جبلا فيستريح ليتنفس من آن لآن . وقبل أن أبلغ منتصف القصة كانت الفتاة المسكينة قد نسيت تحفظها — الفظ بعض الشيء — حيالى . كنت أحس حرارة أنفاسها تلفح يدى . وكان شعرها يتموج فوق جبينى . وانحدرت من وجنتيها بضع عبرات سخينة فبللت صفحات الكتاب على مقربة من أصابعى .

— ١٤ —

فيما عدا صوتى البطىء الرتيب ، الذى كان يترجم لأسرة الصيادين هذه شعر القلب هذا ترجمة حرفية ، لم نكن نسمع أى صوت سوى اللطمات الصماء البعيدة التى يكيلها البحر للشاطىء هنالك تحت أقدامنا . وكان هذا الصوت نفسه متسقا مع المطالعة . كان بمثابة خاتمة القصة المتوقعة ، التى تدمدم فى الجوسلفا فى بدايتها وفى سياقها وكلما تكشفت القصة بدت تخلب مستمعينا البسطاء . وإذا صادف أن ترددت فى العثور على التعبير الصحيح لترجمة كلمة فرنسية كانت جرازيلا تقرب المصباح — الذى عمدت منذ بعض الوقت إلى حمايته من الريح بمئزرها — كانت تقربه من الصفحات حتى كادت فى غمرة قلقها أن تحرق الكتاب ، وكأنها قد حسبت أن ضوء اللهب سيجعل المعانى الذهنية تنبثق أمام عينى انبثاقاً ، والألفاظ تتدفق على شفتى اندفاقا . وكنت أدفع المصباح بيدى مبتسما دون أن أحول نظرى عن الصفحة ، فأشعر بأصابعى ساخنة بعبراتها أيما سخونة .

عندما بلغت اللحظة التي دعت فيها فرجيني عمتها إلى فرنسا، فأحست فرجيني، إن جاز القول، بكيانها ينشطر إلى نصفين : وجهدت أن تعزي بول في ظل أشجار الموز . محدثة إياه عن عودتها، ومشيرة له إلى البحر الذي سوف يحملها ، عمدت إلى طي الكتاب . وأرجأت القراءة إلى اليوم التالي .

كان هذا بمثابة صدمة قلبية لأولئك القوم البؤساء . فجثت جرازيلا أمامي ، ثم أمام صديقي ، ضارعة إلينا أن نتم القصة ، لكن دون جدوى . فقد كنا نروم أن نطيل الاهتمام بالقياس إليها وفتنة التجربة بالقياس إلينا . وعندئذ عمدت إلى انتزاع الكتاب من يدي . وفتحته . كأنها تستطيع بقوة الإرادة أن تدرك معاني حروفه . وأنشأت تحدثه وتقبله . ثم أعادته فوق ركبتي باحترام ضامة يديها وناظرة إلى في توسل وضراعة .

وكان محياها الوضاء البسام في السكينة ، وإن شابته مسحة من الجد والصرامة ، قد اتخذ بغتة في غمرة العاطفة الجياشة والحنو المؤثر الرقيق لهذه القصة ، مسحة من حيوية المأساة ، وبلبلتها وتأثيرها الفاجع . كنت تخال أن ثورة مباغتة قد حولت هذا المرمر الجميل إلى لحم ودموع لقد أحست الفتاة أن روحها الخامدة حتى الآن تتكشف لها في روح فرجيني . وبدت كأنها نضجت ست سنوات في نصف الساعة هذا . إنه صبغات العاطفة العاصفة لونت جبينها ومقلتها اللازوردية ووجنتيها

بلون المرمر . كما لو أن مياهاً هادئة آمنة حلت فيها على حين غرة الشمس والرياح والظلمة تعترك لأول مرة . لم يكن فى مقدورنا أن نسأم تأملها فى هذا الوضع ، هى التى لم تكن توحى لنا حتى الآن إلا المرح والمزاح ، بدأت توحى لنا التوقير والاحترام . لكن عبثاً تضرعت إلينا أن نكمل ، فإننا لم نشأ أن نستنفد سلطاننا فى دفعة واحدة ، وكانت تلذذنا بإسالة دموعها الجميلة أبلغ من أن تجفف منبعها فى يوم واحد ، فانسحبت متجهمة ثم أطفأت المصباح وهى كظيم .

— ١٦ —

وفى الصباح التالى عندما رأيتها ثانية تحت الخمائل ، وأردت أن أبادلها الحديث أشاحت عنى شأنها شأن من يخفى دموعه ورفضت أن تجيب . وكان يرى الرائى من عينيها اللتين تحفهما هالة خفيفة سوداء ومن شحوب وجنتيها الكابى ومن انخفاض زاوية فمها انخفاضاً خفيفاً فاتناً — كان يرى أنها لم يغمض لها جفن وأن قلبها كان ملتاعاً بأشجان سهرة الأمس الخيالية . فياله من سلطان فذ خارق لكتاب يؤثر فى فؤاد فتاة أمية وأسرة جاهلة بكل قوة حقيقة واقعية ، وتبلغ مطالعته مبلغ الحدث فى حياة القلب !

ذلك أنه مثلما كنت أترجم الشعر كان الشعر يترجم الطبيعة وأن تلك الحوادث البالغة البساطة : مهد هذين الطفلين أمام أمين باشتين ، وغرامياتهما البريئة وفرقتهما القاسية ، وهذه العودة التى خافها الردى ، وهذا الفرق وذانكما القبران اللذان لا يضمان إلا قلبا

واحداً فى فىء أشجار الموز ،كل هذه أمور يحسها الكافة ويفهمونها ابتداء من القصر المنيف إلى كوخ الصياد . إن الشعراء يبحثون عن العبقرية فى أبعد الأبعاد فى حين أنها تكمن فى الفؤاد وإن بضعة أنغام بسيطة تعزف اتفاقاً وفى خشوع على هذه الآلة التى نسقها الله تكفى لكى تبكى عصراً برمته ، ولكى تصبح شائعة شيوع الحب جذابة جاذبية العاطفة . إن الجليل يضجر والجميل يخدع فما فى الفن معصوم إلا المؤثر . فمن يعرف كيف يثير الحنو لا يخفى عليه أمر . وإن دمعة واحدة فيها من العبقرية مالا يوجد فى المتاحف والمكاتب كافة فى الكون قاطبة .

مثل الإنسان كمثل شجرة نهزها لنسقط ثمارها : فلا يمكنك أن تهز الإنسان دون أن تسقط منه الدموع .

— ١٧ —

كان المنزل طول النهار حزيناً كأن كارثة أليمة قد ألمت بالأسرة المتواضعة . فجعلنا نجتمع لتناول الوجبات دون أن نتبادل أطراف الحديث . ونفترق . ونلتقى دون ابتسام . وكان يرى الرائى أن جرازيلا تؤدى مشاغلها فى الحديقة أوفى الشرفة بهمة فعساء . وكثيراً ما كانت تتطلع لترى هل أوت الشمس إلى خدرها . وكان جلياً أنها فى ذلك اليوم لم تكن تنتظر غير المساء .

وعندما أتى المساء . واتخذنا أماكننا المعتادة فوق السطح ، فتحت الكتاب وأتممت القراءة وسط النشيج والانتحاب . الأب ، الأم ،

الأطفال ، صديق ، وأنا ذاتي . كلنا اشتركنا في هذا الانفعال العام .
كانت نبرة صوتي الحزينة الخطيرة تتمشى ، دون أن أدري ، مع حزن المغامرات وخطورة الألفاظ . وكانت الألفاظ تبدو في نهاية القصة وكأنها تأتي من بعيد وتسقط في النفس من حالق بصوت أجش ، صوت صدر أجوف لم يعد يخفق فيه القلب ، ولم يعد يعنيه من أمور الأرض إلا ما يتصل بالحزن ، والدين ، والذكرى .

— ١٨ —

كان من المحال أن نتفوه بحرف بعد هذه القصة . فلبثت جرازيلا ثابتة دون حراك في الوضع الذي كانت فيه وهي تستمع وكأنها ما زالت مستمعة . وران السكون ، تصفيق الأحاسيس النائمة الحقيقية هذا ، فلم يقطعه أحد . فقد احترم كل امرئ لدى الآخرين الأفكار التي أحسها في صميمه . ونفد زيت القنديل فجعل ينطفئ رويداً رويداً دون أن يمد أحد يده ليؤرثه . ونهضت الأسرة وانسحبت خلسة . ومكثنا وحدنا صديقي وأنا . متحيرين في سطوة الحقيقة ، والبساطة والعاطفة على كل الناس ، في كل الأزمان ، وفي كل البلدان .

وربما كان ثمة انفعال آخر يعتمل أيضاً في أعماق قلبينا . فإن صورة جرازيلا الساحرة وقد تغيرت بفعل الدموع ، وعرفت الألم بفعل الحب ، كانت تسبح في أحلامنا مع طيف فرجيني الملوية . هذان الاسمان . هاتان الطفلتان ، وقد اختلطتا في رؤى غير مستقرة ، جعلتا تفتنان أو تحزنان نومنا المضطرب حتى الصباح . ولم تسكن

مندوحة من أن نعيد قراءة القصة نفسها للفتاة مرتين فى مساء ذلك اليوم واليومين التاليين له . ولو قد قرأنا لها مائة مرة على التوالى لما سئمت أن تطلب منا قراءتها ثانية . إنها لخاصة من خواص خيال الجنوب الحالم العميق ألا ينشد التنوع فى الشعر وفى الموسيقا فليس الشعر والموسيقا — إن أمكن التعبير — إلا نسيجاً واحداً يطرز فيه كل امرئ مشاعره الخاصة . ففيهما يتغذى الناس على مر العصور دون أن يشبعوا من نفس القصة ومن نفس اللحن شأنهم شأن العامة سواء بسواء . ماذا فى الطبيعة نفسها؟ تلك الموسيقا وذلك الشعر السامى . ماذا فيها غير بضعة ألفاظ وبضعة أنغام . هى هى على الدوام . تحزن بها الناس أو تستخف منهم الألباب منذ أول نفس يتردد فيهم إلى آخر الأنفاس ؟

— ١٩ —

عند شروق الشمس . فى اليوم التاسع . هبت الرياح المعتدلة آخر الأمر . وإن هى إلا ساعات قلائل حتى أصبح البحر بحر صيف . حتى جبال شاطىء نابولى . شأنها شأن المياه والسماء بدت سابحة فى ذوب أمعن صفاء وأشد زرقة منه فى شهور وغرة القيظ . كأنما أن اليم والقبة الزرقاء والجبال الشماء قد شعرت بتلك الرعدة الأولى للشتاء . التى تبلور الهواء وتجعله يأتلق مثل مياه الثلوج المتجمدة . وبدأت أوراق الكرم الضاربة إلى الصفرة وأوراق التين المائلة إلى السمرة تتساقط وتتناثر فى الفناء . وكان العنب قد قطف . والتين المجفف فى الشمس فوق

السطح قد عبي في سلال غليظة من الأعشاب البحرية جدلتها النساء .

وكان القارب يتلهف لتجربة البحر ، والصياد الشيخ يتعجل إعادة أسرته إلى المارجلينا . فعمدنا إلى تنظيف المنزل والسقف . وغطينا النبع بحجر ضخم لكيلا تلوث الأوراق الجافة وأمواه الشتاء الحوض . وأفرغنا البئر الصغيرة المحفورة في الصخر من الزيت ووضعناه في جرار أنزلها الأطفال إلى البحر حاملين إياها على عصى ممدودة بين آذانها . ولففنا الحشية وأغطية السرير في حزمة مشدودة بالحبال . وأشعلنا المصباح لآخر مرة تحت الصورة المتروكة فوق المدفأة . وأدينا آخر صلاة أمام العذراء كيما نوصيها بالمنزل . وبشجرة التين . والكرمة التي كانت الأسرة تغادرها هكذا بضعة أشهر ثم أوصدنا الباب . وخبأنا المفتاح داخل صدع في الصخر مغطى باللبلاب . لكي يعرف الصياد إن عاد خلال الشتاء أين يجده ويستطيع أن يزور بيته . ثم هبطنا إلى البحر . معاونين الأسرة المثقلة في حمل الزيت والخبز والفاكهة وشحنها في القارب .

الفصل الثالث

— ١ —

كانت عودتنا إلى نابولى فى محاذاة خليج بايا وسفوح البوزيليبو المتعرجة ، بمثابة عيد حقيقى للفتاة وللأطفال ، ولنا ، وبمثابة نصر لأندريا . ودلفنا إلى المارجلينا فى الليل الحالك ونحن نغنى . ولم يملك أصدقاء الصياد القدماء وجيرانه الإعجاب بقاربه الجديد . وعاونوه على تفريغ شحنته وجره إلى البر . ولما كنا قد نهيناه عن أن يقول لمن كان يدين به ، فإنهم لم يولونا إلا قليل احتفال .

وبعد أن جررنا القارب على الرمال . وحملنا سلال التين ووضعناها فوق قبو أندريا عن كثب من مدخل الغرف الثلاث الواطئة التى تسكنها الأم العجوز . والأولاد الصغار ، وجرازيلا ، انسحبنا دون أن يرانا أحد ، واخترقنا ، وفى القلب غصة ، عجيج شوارع نابولى المكتظة ، وعدنا أدراجنا إلى مسكننا .

— ٢ —

وبعد بضعة أيام من الاستجمام فى نابولى . عولنا على معاودة نفس

الحياة مع الصياد كلما سمحت لنا حالة البحر . وكان من شأن تعودنا منذ ثلاثة أشهر على بساطة ثيابنا وعري القارب أن بدت لنا ثياب المدن وسرير غرفتنا وأثاثها ترفا ممضا يورث الملل . وكان يراودنا الأمل ألا نستعملها إلا أياما قلائل . بيد أننا عندما ذهبنا في الصباح التالي لنبحث في دار البريد عن رسائلنا المتأخرة ، وجد صديقي خطابا من أمه ، كانت تستدعي ابنها فوراً إلى فرنسا لحضور قران شقيقته . وكان على خطيبها أن يسبقه إلى روما . وطبقا للتواريخ كان لا بد أنه قد بلغها . ولم يكن ثمة مجال للتسويف : فلا مناص من الرحيل .

وكان ينبغي أن أرافقه . ولكنني لست أدري أي فتنة في العزلة والمغامرة قد استبقتني . لعل حياة البحار ، وكوخ الصياد ، وصورة جرازيلا كان لها بعض الشأن في ذلك . لكن على نحو غامض . إلا أن نشوة الحرية . وزهوي لاعتمادي على نفسي وحدي على بعد ثلاثمائة مرحلة من بلدي . والشغف بالغموض والمجهول . والأماني الأثيرية لأحلام الشباب . كان لها في ذلك شأن أكبر .

افترقنا في تحنان رجال . ووعدني أن يعود فيلحق بي فورما يؤدي واجباته كابن وأخ . وأقرضني خمسين ديناراً ليسد ماخلفته هذه الأشهر الستة من فراغ في كيس نقودي ، ثم رحل .

— ٣ —

هذا الرحيل وغياب هذا الصديق الذي كان شأنه معي شأن أخ أكبر مع أخ طفل تقريباً ، تركني في عزلة كانت كل ساعة تزيدها عمقاً

وكنت أحس أنى أغوص فيها كأنى أغوص فى هوة . فكل أفكارى، كل عواطفى ، كل ألفاظى التى كانت فيما مضى تتبختر إذ أتبادلها معه ، رسبت فى قاع نفسى ، حيث فسدت ، واكتأبت ، وجثمت على قلبى كوقر لا قبل لى على أن أزيحه . هذه الجلبة التى لا شيء فيها يعنينى ، هذه الجماهير التى لا يعرف أحد منها اسمى ، هذه الغرفة التى لا نظرة فيها تجاوبنى ، حياة الفندق هذه حيث يحتك المرء بلا انقطاع بقوم مجهولين ، وحيث يختلف إلى مائدة صماء بجوار أناس جدد دائماً وغير مبالين أبداً ، هذه الكتب التى قرأناها مائة مرة ، والتى تقول لك حروفها الثابتة دائماً نفس الكلمات فى نفس الجملة وفى نفس المكان كل ذلك الذى بدا لى عذباً أيما عذوبة فى روما وفى نابولى ، قبل رحلاتنا وحياتنا العاطلة المتجولة أثناء الصيف . جعل يبدو لى الآن بمثابة موت بطىء . كنت أغرق قلبى كمداً .

جعلت بضعة أيام أجر هذا الحزن من شارع إلى شارع . ومن مسرح إلى مسرح . ومن مطالعة إلى مطالعة . دون أن أتمكن من زعزعته ثم انتهى الأمر بأن قهرنى ، ومرضت بما يسمى الحنين إلى الوطن . كان رأسى مثقلا . وساقاى لا تقويان على حملى ، وكنت شاحبا مضنى . وأمسكت عن الطعام . وكان السكون يحزننى ، والضجيج يؤلمنى ، وأنفقت الليالى مؤرقا مسهداً . والأيام على السرير ممدداً ، دون ان تواتينى الرغبة ولا القوة على النهوض . وكان الشيخ قريب أمى ، وهو الوحيد الذى يمكن أن يهتم بأمرى ، قد ذهب لإنفاق بضعة أشهر فى « أبروز » على بعد ثلاثين مرحلة من نابولى حيث اعتزم إنشاء بعض المصانع . فاستدعيت ، طبيبا فأقبل وفحصنى وجس نبضى ، وقال لى :

إنى لست أشكو أى داء . والحق إنى كنت أشكو داء لا يعرف له طبه دواء ، داء يتصل بالنفس والخيال . ومضى لسبيله ولم أره بعد ذلك .

— ٤ —

وفى اليوم التالى شعرت بأنى أبلغ من سوء الحال بحيث جمعت أجمعه فى ذاكرتى ممن يمكن أن أنتظر منه بعض المعونة والشفقة لو حدث أنى لم أبل من مرضى . وكان من الطبيعى أن تراود ذهنى صورة أسرة صياد المرجليينا المقلة ، التى كنت لا أزال أعيش بينها بالذكرى . فأوفدت صبيا كان يخدمنى ليبحث عن أندريا ، وينبئه أن أصغر الشابين المغتربين سنا يشكو علة ويطلب أن يراه .

وعندما بلغ الصبى رسالته كان أندريا فى عرض البحر مع بيبينو . وكانت الجدة مشغولة ببيع السمك على رصيف شياجا ، وكانت جرازيلا وحدها فى المنزل مع أخويها الصغيرين . فلم تكد تستغرق من الوقت إلا ما يكفى لكى تعهد بهما إلى إحدى جاراتها ، وترتدى أحدث ثيابها من طراز بروسيدا ، ثم تبعت الصبى الذى دلها على الشارع والدير القديم ، وتقدمها على السلم .

سمعت نقراً خفيفا على باب غرفتى . وإذا الباب ينفتح كأنما قد دفعته يد خفية : ورأيت جرازيلا . وما إن رأتنى حتى أطلقت صيحة إشفاق وخطت بضع خطوات مرتمية نحو سريرى ، ثم ملكت نفسها فأحجمت وتوقفت وقد انعقدت يداها وتدلتا على مئزرها ، ومال رأسها على كتفيها إشفاقا وتحنانا وحدثت نفسها فى صوت خفيض : « ياله من شاحب ، وكيف تأتى لأيام قلائل أن تغير وجهه إلى هذا الحد ؟! »

ثم أردفت وهى تلتفت وتبحث بعينها عن رفيق فى الغرفة « وأين الآخر ؟ . فقلت لها « لقد رحل ، وإنى وحيد ولا يعرفنى فى نابولى أحد » . فقالت « رحل ؟ وتركك هكذا وحيداً ومريضا ؟ ما كان يحبك إذن ! آه ! لو قد كنت مكانه لما رحلت ، مع أنى لست شقيقك ولم تربطنى بك معرفة إلا منذ يوم العاصفة ! » .

— ٥ —

شرحت لها أنى لم أكن مريضا حينما غادرنى صديقى . فاستطردت فى حدة وفى لهجة تأنيب يمتزج فيها الحنو والهدوء « لكن كيف ؟ ألم يخطر ببالك أن لك أصدقاء آخرين فى المرجلينا ؟ » . ثم أضافت فى حزن وهى تنظر إلى أكمامها وذيل ثوبها « آه . إنى أرى !

ذلك أننا قوم فقراء ، ولعلنا كنا نثير خجلك لو ولجنا هذا البيت الجميل » . ثم استأنفت وهى تمسح عينيها اللتين لم تكفا عن إبقائهما محدقتين فى جبينى وذراعى الواهنتين : « على حد سواء . حتى لو احتقرتنا كنا سنجىء دائما » .

فأجبت مبتسما « اى جرازيلا المسكينة ، وقانى الله شر اليوم الذى أخجل فيه ممن يحبوننى ! »

— ٦ —

عمدت إلى الجلوس على مقعد بجوار سريرى ، وتسامرنا قليلا .

وكانت نبرة صوتها ، وصفاء عينيها ، والاستسلام المطمئن الهادئ البادى فى وضعها ، وسذاجة محياها ، ولهجة نساء الجزر وأولئك اللاهثة والشاكية فى وقت معا ، والتى تذكر — كما هو الشأن

في الشرق — بلهجة الأمة الخاضعة حتى في رجفات العشق نفسها ، وأخيراً ذكرى أيام الكوخ الجميلة التي أنفقتها معها في وهج الشمس ، شمس بروسيدا هذه التي خلت أشعتها ما برحت تنساب من جبينها ومن جسدها ، ومن قدميها إلى غرفتي الحزينة الكئيبة : كل ذلك كان أثناء نظري وإنصاتي إليها ينتشلني من ضعفي ومن ألمي لدرجة أني حسبته نفسي قد أبللت على حين فجأة من مرضي . كان يخيل إلى أني حالما تخرج سأنهض وأمشي . ومع ذلك فقد كان يبلغ من شعوري بالارتياح في وجودها ، أني جعلت أطيل الحديث معها بكل مقدوري وأني انتحلت ألف حجة لأستبقيها ، مخافة أن تتعجل الانصراف فينصرف معها ما شعرت به من ارتياح .

وقامت على خدمتي شطراً من النهار دون وجل ، ولا تحفظ متكلف ولا احتشام زائف ، خدمة الأخت لأخيها فلا تفكر في أنه رجل . وراحت تشتري لي برتقالا . وكانت تقضم القشرة بثناياها الجميلة لتنزعها ولتسكب العصير في قدحي عاصرة إياه بأناملها . وانتزعت من جيدها أيقونة فضية صغيرة كانت تتدلى في شريط أسود وتختفي في صدرها . وعلقتها بدبوس في ساتر سريري الأبيض . وأنشأت تؤكد لي أني سأبرأ عاجلا بفضل الصورة المقدسة . ثم بدأ النهار يولي فانصرفت بعد أن عادت من الباب إلى سريري عشرين مرة لتستفسر عما يمكن أن أرغبه ثانية . ولتوصيني بإلحاح أن أدعو الصورة بكل تقوى قبل أن أنام .

سواء لبركة الصورة والدعاء الذى أدته لها جرازيلا بلا شك ، أو للتأثير المطمئن لرؤيا الحنان والاهتمام التى طالعتنى فى ملامحها ، أو لما هيأه لى وجودها وحديثها من تلهية فاتنة لطفت نغص كل كيانى المريض وسكنته ، فإنها ما إن خرجت حتى أخذتنى سنة من النوم الهادىء العميق .

وفى الصباح التالى ، حينما استيقظت ورأيت قشر البرتقال المنثور على أرضية غرفتى ، ومقعد جرازيلا لايزال ملفوتا صوب سريرى كما تركته وكما لوكانت ستعاود الجلوس عليه ، والأيقونة الصغيرة المدلاة على ساترى بالشريط الحرير الأسود ، وكل آثار وجود المرأة وعنايتها هذه التى كانت تعوزنى منذ أمد بعيد ، بدالى أول الأمر قبل أن أفيق تماما أن أمى أو إحدى أخواتى قد ولجت غرفتى فى المساء . وإن هى إلا أن فتحت عينى جيداً واستعدت أفكارى واحداً إثر آخر حتى تراءت لى صورة جرازيلا كما رأيتها أمس .

وكانت الشمس ساطعة ، والراحة قد قوت أعضائى أيما قوة ، واعتكافى فى غرفتى يثقل على قلبى ، وحاجتى إلى أن أسمع ثانية نبرة صوت معروف تلح على إلحاحا بلغ من شأنه أنى نهضت من فورى ، مع ما كنت عليه من سقام وترنح ، وأكلت بقية البرتقال ، وركبت عربة من الميدان ، واتخذت بالغريزة الطريق إلى المرجلينا .

— ٨ —

وعندما شارفت بيت أندريا الصغير الواطئ ، صعدت السلم المفضى إلى سطح القبو ، المطلة عليه غرف الأسرة ووجدت فوق السطح جرازيلا ، والصياد الشيخ ، وبيبو ، والطفلين . وكانوا فى تلك اللحظة متأهبين للخروج ، مرتدين أبهى ثيابهم للحضور لعيادتى . وكان كل منهم يحمل فى سلة أو فى منديل أو فى يده هدية من الهدايا التى تخيل أولئك القوم الفقراء أن تكون ألطف هدية لمريض وانفعها : هذا قنينة من نبيذ إيسكيا الأبيض الذهبى ، وقد استعيض عن الفلين فى سدها بصمام من حصا البان والعشب المعطر يضمخ القنينة ، وهذه بعض التين المجفف ، وتلك ثمرة من ثمار البشملا والأطفال الصغار ثمار برتقال . كانت نفحة من قلب جرازيلا قد سرت فى جميع أعضاء الأسرة .

— ٩ —

وندت عنهم صيحة دهش عندما رأونى « أزال شاحبا وضعيفا لكن واقفا ومبتسما أمامهم . أما جرازيلا فلفرط ما استخفها من فرح تركت البرتقال يتدحرج من مئزرها على الأرض ، وعدت نحوى ضاربة كفا على كف وصاحت « لقد قلت لك إن الصورة سوف تشفيك إن باتت ليلة واحدة فوق سريرك . فهل خدعتك إذن ؟ » . فأردت أن أعيد لها الصورة ، فتناولتها من صدرى حيث وضعتها ساعة خروجى فقالت لى « قبلها أولا » فقبلتها وقبلت أيضا طرف أناملها التى

بعدتها لتأخذ منى الصورة . فأضافت وهى تضعها فى جيدها وتدسها فى صدرها « سوف أعيدها إليك إن مرضت ثانية . إنها تنفع لاثنين » .

وجلسنا على الشرفة فى شمس الضحى . وكان الجميع يبدون من المرح كما لو أنهم لقوا أخا أو ابنا يرتد إليهم بعد سفر طويل : إن الزمن الذى لاغنى عنه لتكوين الصداقة الحميمة فى الطبقات العليا ، لالزوم له فى الطبقات الدنيا . فالقلوب تنفتح بلا احتراس ، ثم تلتحم فى الحال لأنه ليس وراء العواطف مصلحة محل اشتباه : ففى ثمانية أيام يتكون من الآصرة والقرابة الروحية بين أهل الطبيعة مالا يتكون فى عشر سنين بين أهل المجتمع . كنا ، هذه الأسرة وأنا ، أقرباء من ذلك الحين .

أدلى كل منا بما أصابه من خير أو شر منذ أن افترقنا . كان البيت الفقير يلاقى أسباب التوفيق . فقد كان القارب مباركا . وكانت الشباك موفقة . ولم يسبق أن أتى الصيد بهذا المحصول الوفير ، فلم تكف الجدة لمهمة بيع السمك للناس أمام الباب ، وكان بيبو ، الفخور القوى ، يعادل نوتيا فى العشرين من عمره مع أنه لم يتعد الثانية عشرة . أما جرازيلا فقد كانت تتعلم مهنة أفضل من مهنة الأسرة المتواضعة فإن أجرها ، المجزى بالقياس إلى عمل فتاة ، والمنتظر أن يزيد بفضل مواهبها ، كان يكفى لكساء أخويها الصغيرين وغذائهما ، ولتكوين بائنة لنفسها عندما تبلغ سن الزواج وتفكر فيه .

تلك كانت تعبيرات أهلها . كانت تتعلم صناعة المرجان . وكانت تجارة المرجان وصناعته إذ ذاك الثروة الرئيسية فى صناعة مدن

إيطاليا الساحلية . وكان أحد أخوال جرازيلا ، شقيق الأم التى فقدتها رئيس عمال فى « مصنع » المرجان الرئيسى فى نابولى . ولما كان غنيا بالقياس إلى طبقته ، ومديراً لعدد كبير من العمال من الجنسين ، لا يكفون لتلبية الطلبات الواردة من أنحاء أوربا بشأن هذه الحلى ، فقد فكر فى ابنة أخته ، وحضر منذ أيام قلائل ليضمها إلى عاملاته ، وقد جاءها بالمرجان وبالأدوات ، وعلمها الدروس الأولى لهذا الفن البسيط ، وكانت العاملات الأخريات يشتغلن جماعة فى المصنع .

ولما كانت جرازيلا ترعى الأطفال وحدها نظراً لغياب جدتها والصياد غيابا قهريا مستمراً ، فقد كانت تقوم بحرفتها فى المنزل وكان خالها الذى لا يستطيع أن يتغيب كثيراً ، يوفد إليها منذ بعض الوقت ابنه الأكبر ، وهو فتى فى العشرين من عمره ، سديد الرأى ، متواضع الطبع ، مستقيم القصد ، ومن خيرة الصناع ، ولكنه ساذج الذهن ، لين العظم ، ساءه التكوين بعض الشىء كان يجىء فى المساء ، بعد إغلاق المصنع ، ليفحص عمل بنت خالته وليصقل استعمالها للعدد ، وليلقنها أيضا مبادىء القراءة ، والكتابة ، والحساب . قالت لى الجدة فى صوت خافت حينما كانت جرازيلا تشيح بعينيها وعسى أن ينتهى الأمر فى مصالحة الاثنين ، وأن يصبح المعلم يوما خادما لخطيبته ، فرأيت أن العجوز تراوده ذهنها فكرة زهو وطموح فى شأن حفيدتها . بيد أن جرازيلا لم يكن يساورها شىء من هذا القبيل .

اقتادتنى الفتاة باليد إلى غرفتها ، لتتيح لى أن أعجب بأشغال المرجان الدقيقة التى خرطتها وصقلتها . كانت مصفوفة بإحكام فوق قطن فى قطع صغيرة من الورق المقوى بجانب قائم السرير . وأرادت أن تصنع واحدة منها أمامى . فقمت بإدارة عجلة المخرطة بطرف قدمى ، قبالتها، فى حين عرضت هى غصن المرجان الأحمر للمنشار الدائرى الذى قطعه فى صرير ، ثم جعلت تُدَوِّر هذه القطع ، بأن أمسكتها بطرف أصابعها ، وعرضتها للسن .

كان الغبار الوردى يغمر يديها ، وكان يتطاير فى بعض الأحيان حتى محياها فيذر على خديها وشفتيها خضاباً خفيفاً ، فيبدى عينيها أمعن زرقة وأشد سناء . ثم جعلت تمسح نفسها مستضحكة وتنفض شعرها الفاحم من الغبار ، الذى غمرنى بدورى . وقالت « أليست هذه حرفة جميلة لابنة بحر مثلى ؟ إننا مدينون للبحر بكل شىء : ابتداء من قارب جدى ، إلى الخبز الذى نتبلغ به ، إلى تلك القلائد وتلك الأقراط التى سوف أتزين بها يوما ، بعدما أكون قد صقلت وصنعت منها كثيراً لمن يجاوزنى غنى ويفقنى حسناً . »

كذلك انقضى الصباح فى سمر ، وفى جذل ، وفى عمل دون أن تجول بخاطرى فكرة الانصراف . وشاطرت الأسرة وجبة الظهر ، كانت الشمس ، والهواء الطلق وراحة البال وزهد المائدة التى لا تحمل سوى بعض الخبز والسمك المقلى والفاكهة المحفوظة فى القبو — كانت قد أعادت

لى شهيتى وقوتى . وبعد الظهر عاونت الأب فى رتق خيوط شبكة قديمة منشورة فوق السطح .

كان ما نسمعه من وقع قدم جرازيلا الرتيب وهى تدير المسن ، وحفيف مغزل الجدة ، وصوت الأطفال الذين يلعبون بالبرتقال عند مدخل البيت يصاحب عملنا فى لحن متسق . وكانت جرازيلا تخرج من آن لآن كيما تنفض شعرها فى الشرفة ، وكنا نتبادل نظرة ، أو كلمة ودية ، أو بسمة . وكنت أشعر بسعادة ، لست أدرى مصدرها ، تتولانى حتى تلمس شغاف نفسى . كنت أتمنى أن أكون عوداً من أعواد الند المتأ ثلة فى سور الحديقة ، أو عظاية من العظايات التى تستدفئ فى الشمس على مقربة منا فوق الشرفة وتسكن صدوع جدار البيت مع هذه الأسرة الفقيرة .

— ١١ —

بيد أن روحى ووجهى كانا يكتئبان ويظلمان كلما أشرف النهار على الإدبار . كان يتولانى الأسى عندما أفكر أن لا مناص من العودة إلى غرفتى بالفندق . وكانت جرازيلا أول من لاحظ ما يعترينى . فذهبت تلقى بضع كلمات فى مسامع جدتها فى همس خافت .

قالت لى السيدة العجوز كأنها تحادث أحد أبنائها « لماذا تغادرنا كذلك ؟ ألم نكن معا فى خير حال فى بروسيدا ؟ ألسنا فى نابولى على ما كنا عليه ؟ إنك لتبدو مثل طائر فقد أمه فانطلق يسمسم صائحاً حول كل عش يصادفه . تعال معنا واسكن عشنا إن وجدته يليق بسيد رقيق مثلك . ليس فى المنزل سوى ثلاث غرف ، غير أن بيبو ينام فى القارب . وسوف

شكى غرفة الأطفال جرازيلا على أن يمكنها العمل نهاراً فى الغرفة التى ستنام فيها أنت . فخذ غرفتها ، وانتظر هنا عودة صديقك . لأن حال فتى طيب وحزين مثلك ، وحيد فى شوارع نابولى لمما يشق على النفس كلما ورد على الخاطر .

استخف الفرح الصياد ، وبيبو ، بل الطفلين الصغيرين أيضاً ، وقد أحبوا الغريب فعلا . استخفهم الفرح لفكرة السيدة العجوز . فألحوا بشدة ، كلهم دفعة واحدة ، لكى أقبل عرضها . ولم تقل جرازيلا شيئا ولكنها كانت تنتظر ردى على إلحاح أهلها بجزع بين تداريه بتشاغل مفتعل . كانت تركل الأرض بقدمها ، بحركة عصبية غير إرادية ، لدى كل سبب تمليه الفطنة تذرعت به لعدم القبول .

وأخيراً شخصت إليها ببصرى . فوجدت أن مقلتيها مخضلتان متألقتان أكثر مما عهدتهما . وأنها تفرك بين أصابعها عوداً من أعواد الريحان المستنبت فى أصيص على الشرفة وتسحق فروعه سحقا . وفهمت هذه البادرة أفضل من الخطب المسهبة . فقبلت ما عُرِضَ علىَّ من مشاركة فى الحياة . فصفقت جرازيلا واستخفها الطرب . ووثبت نافرة دون أن ألتفت ، كأنما أرادت أن تأخذنى بكلمتى ، دون أن تدع لى فرصة للتراجع .

– ١٢ –

استدعت جرازيلا بيبو . وفى لحظة نقلت هى وشقيقها إلى غرفة الطفلين سريرها . وأثاثها الفقير . ومرآتها الصغيرة المؤطرة بخشب مطلى

والمصباح النحاسى . وصور العذراء المدلاة على الجدار مثبتة بالدبابيس. والمنضدة . والخرطة الصغيرة التى تصنع بها المرجان . واغترفا من البئر ماء . ورشاه براحة اليد على الأرضية . وكنسا بعناية غبار المرجان من فوق الجدران والبلاط . ووضعا على دعامة النافذة إصيصين هما أشد الأصص التى وجداها فوق السطح إيناعا وأذكاها فواحا بأرج البلسم والخزامى . ولو كان بيبو سيقود خطيبته فى المساء إلى بيت أبيه لما بذلا من العناية فى إعداد غرفة زفافه وجلوها فوق ما بذلا. وكنت أعاونهما ضاحكا على هذا الهرج .

وعندما أعد كل شىء . اصطحبت بيبو والصياد لابتياع واجتلاب ما يلزمنى من أثاث قليل . فابتعت سريراً من حديد . ومنضدة من الخشب الأبيض . ومقعدين من الخيزران ومجمرة نحاسية من المجامر التى يحرق فيها نوى الزيتون فى أماسى الشتاء للاستدفاء . وكانت حقيبتى التى أرسلت لإحضارها من غرفتى تحتوى البقية الباقية . وفى المساء نفسه بت فى غرفتى الجديدة . ولم أستيقظ إلا على شقشقة عصافير الجنة المراحة ، التى كانت تلج غرفتى من مصراع مكسور فى النافذة ، وعلى صوت جرازيلا التى كانت تشدو فى الغرفة المجاورة مصاحبة شدوها بحركة مخرطتها الرتيبة .

— ١٣ —

عمدت إلى فتح النافذة المطلة على حدائق الصيادين والفسالات الصغيرة المحصورة بين صخور البوزيليب وميدان المارجلينا.

كانت بعض كتل الجرانيت الأسود قد تدحرجت حتى تلك الحدائق وعلى مقربة من المنزل . وكانت بعض أشجار التين الضخمة التي نبتت معتصرة بين هذه الصخور ، تعتقلها بأذرعتها المتعرجة البيضاء ، وتغطيها بأوراقها العريضة الثابتة . ولم يكن يرى الرائي من ناحية المنزل هذه ، في حدائق القوم الفقراء هذه ، سوى بضع آبار تعلوها عجلة كبيرة ، يديرها حمار ، لري الكرنب والجزر ، بوساطة قنوات من الشمار ، ونساء يجففن الغسيل على حبال ممددة بين أشجار الليمون ، وأطفال يلعبون أو يبكون فوق شرفات بضعة بيوت بيضاء منثورة هنا وهنالك بين الحدائق . إن هذا المنظر المحدود ، الشعبي ، الكئيب ، لضواحي مدينة كبيرة ، بدا لي رائعا إذا قورن بالواجهات العالية التي تحيط بالشوارع الضيقة ، والجماهير الصاخبة في الأحياء التي بارحتها من قريب . فقد كنت أتنفس هواء طلقا بدلا من تراب ذلك الجو البشري التي كنت أتنفسه وناره ودخانه . وكنت أسمع نهيق الحمير ، وصياح الديكة ، وحفيف الأوراق ، وأنين البحر المتناوب بدلا من خبيب العجلات ، وصراخ الناس الحاد ، والرعد المتصل لتلك الأصوات المزعجة التي لا تتيح في شوارع المدن الكبرى أية راحة للأذن ولا أية سكينة للذهن .

لم يكن في مقدوري أن أنتزع نفسي من سريري ، حيث كنت أستمري متلذذا هذه الشمس ، وهذه الأصوات الريفية ، وتحويم الطير هذا ، وراحة الفكر هذه التي لا يعكر صفوها معكر ، وحيث كنت أشاهد عري الجدران ، وخواء الغرفة ، وغياب الأثاث ، فأجد

لذة فى التفكير فى أن هذا البيت الفقير كان يحبى على أقل تقدير ، وأنه ما من طنافس ولا رياش ولا ستائر من حرير تستحق أدنى دأب أو اهتمام .إن جامد الإحساس ، إذا أوتى ذهب العالم كله ، لا يستطيع أن يشترى خفقة واحدة من خفقات القلب ، ولا شعاعا واحدا من نظرة حنون .

كانت هذه الخواطر تهدهدنى فى إغفاءتى هدهدة رقيقة ، وكنت أحس أنى أستعيد الصحة والطمأنينة . ودخل بيبو غرفتى مرارا ليرى هل أحتاج إلى شىء من الأشياء . وأحضر لى فوق سريرى بعض الخبز والعنب فأكلته راميا الفتات والبذر للعصافير . وكان الوقت قبيل الظهيرة . وعندما صحوت كانت الشمس تتسلل إلى غرفتى بأشعتها الساطعة وفتورها الخريفى الرقيق . واتفقت مع الصياد وزوجه على أن أدفع كل شهر مبلغا طفيفا إيجارا لغرفتى ، ومشاركة بنزر يسير فى نفقات المنزل . وكان المبلغ زهيدا ومع ذلك وجده أولئك القوم الطيبون باهظا . وكان جليا أنهم لا يسعون إلى ابتزاز مالى بل على النقيض يشعرون بألم دفين لأن فقرهم المدقع وزهد حياتهم الشديد لا يتيحان لهم أن يكرموا وفادتى إكراما كانوا يتيهون به فخرا لو أنه لم يكلفنى شيئا . جعلوا يضيفون رغيفين على الأرغفة التى يشترونها الأسرة كل صباح ، وقليلا من السمك المسلوق أو المقلى فى الغذاء ، ومن منتجات اللبن والفاكهة المخففة فى الماء ، ومن الزيت لقنديلى ، ومن الوقود لأيام البرد القارس . كان هذا كل شىء . وكانت بضع « حبات » من النحاس ، عملة أهل نابولى الصغيرة ، تكفى لنفقاتى الشخصية اليومية. ما فهمت عمرى أفضل مما فهمت أن السعادة لا صلة لها بالترف . وأن

الإنسان يمكنه أن يشترى منها بفلس من نحاس أكثر مما يشترى بكيس من ذهب إذا عرف كيف يجدها حيث أودعها الله .

— ١٤ —

عشت هكذا فى أثناء أشهر الخريف الأخيرة وأشهر الشتاء الأولى ، إن بهجة أشهر نابولى هذه وصفاءها تجعلانها لا تفترق عن سابقاتها . وما من شىء كان يكدر هدوء حياتنا الرتيب . ولم يعد الشيخ وحفيده يغامران بالتوغل فى عرض البحر بسبب هياج الرياح المتكرر فى هذا الموسم . فواصلا الصيد بطول الشاطىء ، وكان محكهم الذى تبيعه الأم فى « البحرية » يكفى حياتهم الزهيدة كل الكفاية .

وكانت جرازيلا تتقدم فى إتقان حرفتها ، وقد زكا عودها وزها حسنها فى الحياة الوادعة المستقرة التى عاشتها منذ اشتغلت بصناعة المرجان وكان أجرها الذى يحضره لها خالها يوم الأحد لا يسمح لها بأن تهيىء لأخويها الصغيرين هيئة أنظف وكسوة أفضل وبأن تلحقهما بالمدرسة فحسب ، بل أن تهيىء لجدتها ولنفسها قطع ثياب أغلى ثمنا وأوفر أناقة مما ترتديه نساء الجزيرة : من عصابات حريرية حمراء تتدلى من خلف الرأس على الكتفين فى مثلث طويل ، وأحذية دون عقب ، لا تغطى سوى أصابع القدم ، موشاة ببرق من فضة ، وسترات حريرية سيراء تشقها خطوط سوداء وخضراء : تلك السترات المزينة بجدائل تتموج مفتوحة على الفخذين فتبدى من أمام رشاقة القوام وأعطاف الجيد المزين بالقلائد إلى أقراط كبيرة منقوشة تتشابك فيها خيوط الذهب بمسحوق اللؤلؤ إن أفقر نساء الجزر اليونانية يتجملن بتلك الحلى وتلك الزينة وما من مأساة ترغمهن على الإقلاع عنها . ففى الأقاليم التى حب الجمال فيها أعنف

منه تحت سمائنا ، والتى الحياة فيها هى الحب ، ليست الحلى ترفا فى نظر المرأة : إنها عندها الضرورة الأولى وربما الوحيدة .

— ١٥ —

عندما كانت جرازيلا تخرج من غرفتها إلى الشرفة ، يوم الأحد أو أيام الأعياد ، لابسة هذه الثياب ، متحلية ببعض أزهار الرمان أو الورود الحمراء فى مفرق شعرها الفاحم ، عندما كانت تتبختر ذهابا وجيئةأمام نافذتى مثل طاووس يتلألأ فى وهج الشمس فوق السطح، مصغيةإلىدوىالأجراس فى الكنيسة المجاورة ، عندما كانت تجرمتثاقلة متخطرة قدميها الحبيستين فى نعالها المنقوشة بالميناء وهى تحدجها بنظرها، ثمترفع رأسها بتأود الجيد المعهود كيما يتماوج منديلهاالحريرى وشعرها الأثيث على كتفيها ، عندما كانت تستشف أنى أتملى فيها ، كانت تتضرج بمسحة من حمرة كأنها خجلى خفراء أن تكون على هذا المبلغ من الجمال ، وفى بعض الأحيان كانت نضرة جمالها الجديدة تؤثر فى نفسى حتى ليخيل إلى أنى أراها لأول مرة ، وأن ألفتى المعتادة بها تتحول إلى شىء من الاستحياء والافتتان .

بيد أنها ما كانت تسعى إلى أن تفتن أحداً من الناس ، وكان حبها الغريزىللزينة مبرأ من كل زهو ومن كل دلال ، حتى إنها كانت عقب الحفلاتالدينية مباشرة تبادر إلى التجرد من زينتها الثمينة ، وإلى ارتداء السترة البسيطة المصنوعة من الصوف الخشن الأخضر ، وثوبها الهندى المخطط بالأحمر والأسود ، وإلى لبس النعال ذات العقب من الخشب

الأبيض ، التي كانت تخب طول النهار فوق الشرفة خبيب « القباقيب » الرنانة التي تلبسها إماء الشرق .

وحينما كانت أترابها لا يحضرن لأخذها إلى الكنيسة أو لا يرافقها ابن خالها ، كنت أنا الذي كثيرا ما أقتادها وأنتظرها جالسا على سلم البهو الخارجي . ولدى خروجها كنت أشعر بشيء من الزهو في ذاتي كما لو كانت شقيقتي أو خطيبتي ، إذ أسمع همسات الإعجاب التي يثيرها محياها الصبيح الفاتن بين أترابها وبين شباب نوتية رصيف المارجلينا . إلا أنها ما كانت تسمع شيئا ، ولا ترى من الجمهور أحداً غيري ، فكانت تبتسم لي من أعلى الدرج ، وترسم علامة الصليب لآخر مرة بأناملها المخضلة بالماء المبارك ، ثم تهبط الدرك الذي أنتظرها عند نهايته مستحيية ، غاضة طرفها .

كذلك كنت أقتادها أيام العيد صباحا ومساء إلى الكنيسة ، التسلية الوحيدة والتقية التي عرفتها وأحببتها . وكنت أعنى في تلك الأيام بأن تكون ثيابي أقرب ما يمكن إلى ثياب نوتية الجزيرة الفتيان ، حتى لا يدهش وجودي أحـــد ، وحتى يحسبني الناس أخا الفتاة التي أصحبها أو قريبا .

وفي الأيام الأخرى لم تكن تبرح المنزل . أما أنا فقد عدت رويدا رويدا إلى حياة البحث والدراسة ، وإلى عاداتي الانفرادية التي لا يلهيني عنها إلا صداقة جرازيلا العذبة ، وتبني أسرتها إياي . أنشأت أطالع مؤرخي اللغات كافة وشعراءها . وكنت أكتب في بعض الأحايين ، كنت أحاول بالإيطالية تارة وبالفرنسية تارة أخرى أن أنضفض

بالنثر أو بالشعر باكورة فورات النفس هذه ، التى تبدو كأنما تجثم على القلب إلى أن يخفف الكلام وطأها حين يعبر عنها .

يبدو أن الكلام هو النصيب الوحيد المقدر للإنسان وأن الإنسان خلق لكى يتمخض عن الأفكار كما تتمخض الشجرة عن الثمار . وإنه ليعانى الآلام إلى أن يلفظ إلى خارجه ما يعذبه فى أحشائه . وإن كلامه المكتوب لهو بمثابة مرآة لازمة له لكى يتعرف نفسه ويستيقن من وجوده . وطالما أنه لا يرى نفسه فى مؤلفاته فهو لا يحس أنه مستكمل أسباب الحياة . فالذهن له بلوغه ، شأنه شأن الجسد .

كنت فى تلك السن التى تحتاج فيها النفس إلى أن تقتات وأن تتكاثر بالكلام . لكن . كما هو الشأن دائماً . تولدت فى نفسى الغزيرة قبل القوة . فكنت لا أكاد أكتب حتى أمتعض من تأليفى وأطرحه باشمئزاز وتقزز . كم حملت رياح بحر نابولى وكم ابتلعت أمواجه فى الصباح . إربا من عواطفى وخواطرى فى الليل ، مزقتها فى النهار وطارت بعيداً عنى غير مأسوف عليها .

— ١٦ —

وفى بعض الأحيان كانت جرازيلا ترانى قد أطلت الاعتكاف والتزمت السكون أكثر من المعتاد ، فتدخل غرفتى خلسة لتنتزعنى من غمار مطالعاتى العنيدة أو من مشاغلى . كانت تتقدم دون دبيب وراء مقعدى ، وتشب على أطراف قدميها لترى من فوق كتفى ما أقرأه أو ما أكتبه ، وإن لم تفقهه ، ثم تسلبنى الكتاب وتنتزع القلم منى

أصابعى بحركة مباغتة وتولى هاربة . فاتبعها إلى الشرفة ، ويتولانى الغيظ . فتستضحك . فأصفح عنها ، ولكنها تعنفنى بجد وحزم مثلما تفعل الأم .

كانت تهمهم بفارغ صبر يختلط فيه الجد بالهزل « ماذا يقول اليوم ذلك الكتاب لعينيك طيلة هذا الوقت ؟ ألا تنتهى أبدا تلك السطور السوداء المتراصة على هذا الورق القديم الكريه من التحدث إليك ؟ ألست تعرف من الأقاصيص ما يكفى لتحكيها لنا أيام الأحد وطيلة أماسى السنة مثل تلك التى طالما أبكتنى فى بروسيدا ؟ ولمن تدبج آناء الليل تلك الرسائل المسهبة التى ترميها فى الصباح إلى رياح البحر ؟ ألا ترى أنك تضر نفسك ضرراً بالغاً وتبدو شاحباً وشاردا لما تكتب أو تقرأ طويلا ؟ أليس أعذب عندك أن تحادثنى ، أنا التى أنظر إليك من أن تحادث أياما بطولها هذه الكلمات وهذه الأطياف التى لا تصغى إليك ؟ رباه ! ليتنى كان لى من العقل ما لهذه الأوراق ! إذن لحادثتك طول النهار ، ولأجبتك إلى كل ما تسألنى إياه ، وإذن لما احتجت أن تبلى عينيك كذلك وأن تحرق زيت قنديلك . » وحينئذ كانت تخبىء عنى كتابى وأقلامى ، وتحضر لى صدارى وقبعتى ، وترغمنى على الخروج لتسليني .

وكنت أنقاد لها متأنفا متبرما لكن مدنفا متيما .

الفصل الرابع

- ١ -

كنت أنطلق فى جولات مستطيلة فى ربوع الريف مخترقا المدينة سارحا على الأرصفة ، إلا أن هذه الرحلات الانفرادية لم تكن حزينة كما كان شأنها فى الايام الأولى لعودتى إلى نابولى . كنت أستمتع منفرداً ولكنى كنت أستمتع استمتاعا رائعا بمشاهد المدينة والشاطىء والسماء والأمواه . ولم يعد شعورى العابر بعزلتى يثقل على ويضنينى ، كان يحملنى أنطوى على نفسى مستجمعا قوات قلبى وتفكيرى . كنت أعرف أن عيوناً وخواطر حبيبة تتبعنى فى هذه الجموع الغفيرة ، أو فى هذه الفلوات القفراء ، وأن قلوبا عامرة بحبى تنتظر أوبتى .

لم يعد شأنى شأن الطائر الذى يتصايح حول وكنات غريبة ، وفقا لتعبير السيدة العجوز . بل شأن الطائر الذى يحاول أن يطير مبعدا عن الغصن الذى يحمله لكنه يعرف طريق العودة إليه . كان كل كلفى بصديقى الغائب قد انصب على جرازيلا . بل كان فى هذه العاطفة مسحة من العنف ، والعمق ، والحنو لا تتوافر فى العاطفة التى كانت تربطنى به . كان يخيل إلى أنى مدين بهذه إلى العادة وإلى الظروف . أما تلك فقد تولدت من صميم ذاتى وظفرت بها باختيارى .

لم يكن يساورنى منها اضطراب ، ولا غيرة ، ولا انشغال عنيف ؛ بل كانت راحة قلب عذبة وليست حمى . ولم يجل بخاطرى أن أحب على نحو آخر ولا أن أكون محبوباً أكثر . ولم أكن أعرف ما إذا كانت رفيقة أو صديقة أو شقيقة لى أو غير ذلك ، وإنما كنت أعرف فقط أنى سعيد معها وأنها سعيدة معى .

لم أكن أرغب فى مزيد ،فى شىء آخر . لم أكن فى السن التى يحلل المرء فيها لنفسه الشعور الذى يشعر به كيما يجد لسعادته وصفاً باطلا . كان حسبى أن أكون هادئا ، محبا وسعيداً ، دون أن أدرى مصدر ذلك أو علته .

كانت الحياة المشتركة ، والتفكير المشترك توثقان كل يوم عرى الألفة البريئة العذبة التى تربطنا ، هى ، طاهرة فى استسلامها بقدر ما أنا هادئ فى خلو بالى .

— ٢ —

منذ الأشهر الثلاثة التى غدوت فيها فرداً من أفراد الأسرة ، وسا كنتها تحت سقف واحد ، وشغلت إن صح القول شطراً من تفكيرها ، كانت جرازيلا قد تعودت أن تعدنى متمما اقلبها حتى إنها ربما لم تدرك مدى الحيز الذى أشغله منه . كانت معى لا يساورها شىء من هذه المخاوف أو هذه التحفظات التى تعترض العلاقات بين فتى وفتاة ، والتى كثيراً ما تولد الحب من ذات التحوطات التى نتخذها لنحتمى منه . لم يكن

يخالجها شك . وأنا ذاتى كنت لا أكاد أشك فى أن مفاتنها الطفلية الخالصة ، التى تعرضت الآن لمزيد من الأشعة فتفتحت بكل نضرة النضوج المبكر ، قد جعلت حسنها البرىء سطوة لها ، ومثار إعجاب الكافة ، ومبعث خطر لى . لم تكن تهتم ألبتة بإخفائه عنى أو تزيينه لعينى . لم تفكر فى هذا الشأن أكثر مما تفكر أخت فيما إذا كانت فى عين أخيها جميلة أو دميمة . لم تعمد إلى زيادة وردة فى شعرها أو إنقاص وردة منه من أجلى . أو إلى الانتعال عنـــدما كانت تلبس أخويها الصغيرين صباحا فوق الشرفة فى الشمس ، أو عندما كانت تساعد جدتها فى كنس الأوراق الجافة التى سقطت ليلا فوق السطح . وكانت تلج فى كل وقت غرفتى ، المفتوحة دائماً ، وتجلس بنفس البراءة التى يجلس بها بيبو على المقعد بجوار سريرى .

وفى أيام الغيث كنت أنفق ساعات بطولها منفرداً بها فى الغرفة المجاورة ، التى كانت تنام فيها مع الطفلين ، وتشتغل بصناعة المرجان . وكنت أعاونها فى حرفتها التى علمتنى إياها ، ونحن نسمر ونلهو . وإذا كنت أقل منها مهارة ولكن أقوى بنية فقد كنت أنجح منها فى ترقيق القطع . وكذلك كنا نؤدى عملا مضاعفا ، فكان يومها يعدل يومين .

وفى المساء ، على النقيض ، عندما يخلد الأطفال والأسرة إلى النوم كانت هى تصير التلميذة وأنا أصير المعلم . كنت ألقنها القراءة والكتابة بأن أجعلها تتهجى الحروف فى كتبى ، وأمسك بيدها لكى أعلمها كيف تخطها . وإذا كان ابن خالها لا يستطيع الحضور كل يوم فإنى

محله . وسواء لأن هذا الشاب ، الشائه الأحدب ، لم يكن
ىمته قسطا كافيا من الجاذبية والاحترام ، رغم رقته وصبره
، أو لأنها هى نفسها كان ينتابها كثير من الشرود خلال
كانت تظهر معه تقدما أقل بكثير مما تظهره معى . كان نصف
، ينقضى فى الدعابة ، والضحك ، وتقاليد المعلم . وكان الشاب
د كلفا بتلميذته وأكثر خجلا أمامها من أن يزجرها .
كل ماترومه الفتاة حتى لاينثنى حاجباها الجميلان حنقاً
حتى لاتزم له شفتيها زمتهما الصغيرة . وكثيراً ما كان
ـــة المخصصة للقراءة فى تنظيف حبوب المرجان ، فى
الصوف عن مغزل الجدة ، أو فى رتق الخروق فى

، شىء عنده على مايرام ، مادامت جرازيلا تبتسم له
ظة انصرافه ، وتقول له « وداعا » ! حيث تود أن تقول له
! » .

— ٣ —

ى فعلى النقيض كان الدرس جديا . وكثيراً ما كان يمتد
، النعاس أجفاننا . وكان يرى الرائى ، من رأسها المحنى ،
ـب ، وثباتها المنتبه المتجلى فى وضعها وفى سيماتها ، أن الفتاة
، قصارى جهدها فى سبيل النجاح . كانت تمسند مرفقها على كتفى
كتب حيث تخط إصبعى الخط . وتدلها على الكلمة التى يتعين

أن تنطقها ، وعندما كانت تـكـتب ، كنت أمسك أصابعها بيد
لأقود قلمها شيئا ما .

وعندما كانت ترتكب غلطة ، كنت أعنفها فى مظهر حازم وحا :
ركانت لا ترد ، ولا تتأفف إلا من نفسها ، وفى بعض الأحيان كـنـ
أراها موشكة على البـكاء ، وعندئذ كـنت أعمد إلى تلطيف صو
وتشجيعها على البدء من جديد . أما إذا أجادت القراءة أو الـكـتـ
فـكـنت على العكس أراها تنشد من تلقاء نفسها مكافأتها فى إطار
إياها وامتداحها . كانت تستدير نحوى ، وقد توردت خجلا ، وارتسم
على جبينها وفى عينيهـا ومضات من الغبطة المزهوة ، وهى أ
فخراً بالسرور الذى هيأته لى منها بالنصر الصغير الذى أحر
بنجاحها .

وكنت أكافئها بأن أطالع لها بضع صفحات من بول وفر
التى كانت تؤثرها على كل شىء ، أو بضع أبيات من لوتاس عن
يصف الحياة الريفية للرعاة التى كانت تسا كنهم « هرمينى » ، أو
يتغنى بلوعة محبين من المحبين أو بيأسهما . كان جرس هذه الآ
يجعلها تستعبر وتحلم طويلا عقب توقفى عن المطالعة . ليس لنا
صدى أبقى رنينا وأبقى أمدا من قلب الشباب الذى يتمخض
الحب وليداً إنه بمثابة استشعار لجميع العواطف سلفا . وهو قـ
بمثابة ذكرى لها أو حداد . وكذلك فإنه يدفع إلى البكـاء فى
الحياة المتباعدين جميعـــاً : الشباب ، على الأمنيات ، والحـ
على الحسرات .

— ٤ —

إن المؤانسات الفاتنة فى هذه السهرات الطويلة العذبة على بصيص المصباح ، وعلى دفء المستقبل تحت أقدامنا ، لم تفض بيننا قط إلى أفكار وألفات غير ما ينشأ منها بين الأطفال . كان كلانا محميا ، أنا بغفلتى الباردة تقريبا ، وهى بسذاجتها وطهارتها . وكنا نفترق بنفس الهدوء الذى اجتمعنا به ، وعقب تلك المسامرات المستطيلة بلحظة كنا ننام تحت سقف واحد ، لا تفصلنا غير بضع خطوات ، شأننا شأن طفلين لعبا سويا فى المساء ، ولا يراودهما فى الحلم شىء يخرج عن تسلياتها البسيطة . وقد كان هذا الهدوء فى العواطف التى لا تمى بوجودها ، والتى تستمد غذاءها من ذاتها قمينا بأن يطول سنين لولا ظرف غير مجرى الأمور ، وكشف لنا عن طبيعة صداقة كانت حسبنا لنكون على هذا المبلغ من السعادة .

— ٥ —

كان سيكو ، وهو اسم ابن خال جرازيلا ، يواظب على الحضور بمثابرة تتزايد يوما إثر يوم ، لكى ينفق ليالى الشتاء مع أسرة البحار . ومع أن الفتاة لم تبد له بادرة إيثار ، بل كان مناط دعابتها وشبه ألعوبة فى نظرها ، فقد كان رقيق الحاشية ، موفور الصبر ، جم التواضع أمامها حتى إنها لم تتمالك نفسها من أن تتأثر بمجاملاته ، وأن تبتسم له أحيانا بعطف ومودة . وكان هذا حسبه . فقد كان مجبولا على فطرة

ضعاف القلوب ، لكن رفاقها ، الذين يشعرون بأن الطبيعة قد حرمتهم المزايا التي تجعل المرء محبوبا ، فيقنعون بأن يحبوا دون تجاوب، والذين يتفانون تفاني العبيد مختارين ، إن لم يكن في سبيل إسعاد المرأة التي يُخضِعون لها قلبهم ، ففي خدمتها . وهذه الفطرة من فطر الحب ، إن لم تكن أنبلها فهي أبلغها تأثيراً . فهي تستدر الرثاء والإشفاق ولكنها تستوجب الإعجاب ، أن تحب لكى تكون محبوبا فهذا من خصال الإنسان ، أما أن تحب من أجل الحب فهذا من خصال الملائكة !

— ٦ —

كان ثمة مسحة ملائكية فى حب سيكو المسكين تتوارى وراء قسماته القبيحة . لذلك فإنه لم يكن يحس ذلة أو غيرة من الألفة والإيثار اللذين كانت تخصنى بهما جرازيلا أمام أنظاره . بل كان يحبنى لأنها تحبنى . لم يكن يطالب فى عاطفة بنت عمته المكان الأول أو المكان الوحيد . بل الثانى أو الأخير : كان أى شىء يكفيه . ولكى يعجبها لحظة ، لكى يحصل منها على نظرة رضا ، لفتة أو كلمة لطيفة ، لجاء ليبحث عنى فى قلب فرنسا ويعيدنى إلى تلك التى تؤثرنى عليه ، بل أعتقد أنى لو قد سببت لبنت عمته ألما لأبغضنى بغضاً .

كانت مبعث زهوه كما كانت موضع حبه . ولعله أيضاً ، وهو الفاتر فى دخيلته ، الرزين ، الأريب ، الدقيق كما خلقه ربه وكما جعله عجزه — لعله كان يقدر تقديراً غريزياً أن سلطانى على ميول بنت عمته لن يكون أزلياً ، وأن ظرفا من الظروف ، ظرفا محتوما ، سوف

يفرق شملنا ، وأنى غريب ، ومن بلد بعيد ، وأن لى من المكانة والثروة ما لا يتناسب بداهة مع مكانة ابنة نوتى من بروسيدا ، وأن الوشيجة الحميمة القائمة بينى وبين بنت عمته ستنقطع يوما مثلما اتصلت ، وأنها حينئذ ستبقى له وحيدة مهجورة يائسة ، وأن هذا اليأس نفسه سوف يلين قلبها ويسلمه إياه محطما لكن كاملا غير منقوص . إن دور المواسى والصديق هذا كان الدور الوحيد الذى يمكنه أن يطمع فيه . إلا أن أباه كان يضمر له فكرة أخرى .

— ٧ —

كان الأب يعرف حب سيكو لبنت أخته ، ولذا كان يجىء ليراها بين آونة وأخرى . وإذ تأثر بجمالها ورجاحة عقلها ، وتعجب لما حققته من تقدم سريع فى مزاولة صناعتها ، وفى القراءة والكتابة ، وفكر من جهة أخرى أن ما حاق بسيكو من أرزاء الطبيعة ان يسمح له أن يصبو إلى غير ما يمليه الأدب والقرابة من عواطف ، فقد قرر أن يزوج ابنه من بنت أخته . ولما كانت ثروته موفورة ، وكبيرة بالقياس إلى عامل مثله ، فقد كان يعد طلبه فضلا سابغا لن يفكر أندريا وزوجته والفتاة فى مقاومته . وسواء أكان قد حادث سيكو فى شأن مشروعه ، أو كان قد أخفى عنه فكرة ليفاجئه مفاجأة سارة ، فقد عقد العزم على أن يفاتحهم فى الأمر .

— ٨ —

وفى عشية عيد الميلاد عدت متأخراً عن المعتاد لآخذ مكانى فى عشاء الأسرة ، فلاحظت شيئاً من الفتور والاضطراب فى وجه أندريا

وزوجته . ورفعت أنظاري إلى جرازيلا فرأيت أنها كانت قد بكت .
وكان وجهها عادة يبلغ من الصفاء والمرح لدرجة أن مسحة الحزن غير
المألوفة هذه كانت كأنما تغطيها بحجاب حقيقي. حتى لكأن ظلال أفكارها
وقلبها قد انتشرت على قسماتها . ولبثت متصلبا صامتا لا أجرؤ على
سؤال أولئك القوم المساكين ولا محادثة جرازيلا ، خشية أن يفجر
مجرد سماع صوتي قلبها الذي يبدو أنها لا تكاد تكبته .

لم تكن تنظر إلى ، على خلاف عادتها . كانت تتناول بيد شاردة
كسرات الخبز فتضعها فى فمها ، وتتظاهر بأنها مقبلة على الأكل، ولكنها
لم تستطع . فقد كانت تلقى بالخبز تحت المائدة . وقبل نهاية الوجبة
الحزينة تعللت بحجة الذهاب لتنويم الأطفال ، وقادتهم إلى غرفتهم ،
واحتسبت نفسها هناك دون أن تودع والديها أو تودعنى ، وتركتنا
وحدنا .

وعندما خرجت ، سألت الأب والأم عن علة خطورة أفكارهما
وحزن ابنتهما . فرويا لى أن أبا سيكو جاء أثناء النهار إلى البيت
وطلب يد حفيدتهما لابنه ، وأن هذا يعد سعادة كبرى وحظا مواتيا
للأسرة، وأن سيكو سوف يكون ذا ميسرة ، وأن جرازيلا - وهى طيبة
السريرة ستأخذمعها أخويها الصغيرين وتربيهما كأنهما ابناها ، وهكذا
تكون أيام شيخوختها مؤمنة ضد البؤس ، وأنهما وافقا على هـــذا
الزواج شاكرين وحدثا جرازيلا فى شأنه فلم تجب بشىء خفراً واستحياء،
وأن صمتها ودموعها كانا نتيجة مفاجأتها وانفعالها ، بيد أن هذا سيمر
مرور الذبابة على الزهرة ، وأخيراً أنه قد تقرر فيما بين أبى سيكو وبينهما
أن تعقد الخطبة عقب عيد الميلاد .

ولبثا يتكلمان إلا أنى كنت كففت عن الاستماع منذ زمن طويل.
لم أكن قد استجليت قط كنه العاطفة التى أكنها لجرازيلا . لم أكن أعرف كيف عشقتها ، وما إذا كان ميلى نحوها يتـــألف من الألفة الصافية ، أو الصداقة ، أو العادة ، أو من كل هذه العواطف مجتمعة . إلا أن فكرة أن أرى كل وشائج الحياة والقلب العذبة هذه تتغير هكذا بغتة بعد أن توطدت وكأنها التحمت بينهـا وبينى دون أن تدرى ، فكرة أنها سوف تنتزع منى لتعطى فجـأة لغيرى ، وأنها بعد أن كانت رفيقتى وشقيقتى كما هو شأنها الآن سوف تصبح غريبة عنى غير حافلة بى ، وأنها سوف لا تكون هنا بجانبى ، وأنى لن أعود فأراها فى كل حين ، ولن أعود فأسمع صوتها ينادينى ، وأنى لن أطالع فى عينيها هذا الشعاع المشرق دائما نحوى من النور الرقيق والحنان الدفوق الذى ينير قلبى فى عذوبة ويذكرنى بأمى وأخواتى ، والفراغ والليـل العميق اللذان أتصورهما يكتنفانى فجأة ، هنا ، غداة يمضى بها زوجها إلى بيت آخر ، وهذه الغرفة التى لن تنـام فيها وغرفتى التى لن تلجها ، وتلك المائدة التى لن أراها تختلف إليها ، وتلك الشرفة التى لن أستمع فيها إلى دبيب قدميها العاريتين أو إلى صوتها فى الصبح عند صحوى ، وهذه الكنائس التى لن أقودها إليها أيام الأحد ، وهذا القارب الذى سيظل مكانها فيه شاغرا والذى لن أتحدث فيه إلا إلى الريح والموج ، والصور المزدحمة لـكل هذه العادات الرقيقة فى حياتنا الماضية التى تتوارد على خاطرى دفعة واحدة ثم تتبخر على حين غرة لتتركنى كأنما فى هوة من العزلة ومن العدم ، كل ذلك أشعرنى لأول مرة بما كانت بالقياس

إلى صحبة هذه الفتاة ، وأوضح لى أيما إيضاح أن العاطفة التى تربطنى بها ، حباً كانت أو صداقة ، كانت أقوى مما أعتقد وأن فتنة حياتى المبهجية فى نابولى ، دون أن أدرى أنا نفسى ، لم تكن فى البحر ، ولا فى القارب ، ولا فى الصياد ، ولا فى زوجته ، ولا فى بيبو ، ولا فى الأطفال وإنما فى مخلوق واحد ، وأن هذا المخلوق إذ يختفى من البيت يختفى معه كل شىء . هى على الأقل فى حياتى الراهنة ، وليس فيها سواها شىء . لقد شعرت بأن هـــذه العاطفة الغامضة حتى ذاك الوقت ، والتى لم أكن قد أقررت بها قط كالتالى ضربة بلغ من فداحتها أن قلبى أصابته منها هزة ، وأنى أحسست بشىء من لانهائية الحب فيما تمثل لى من الحزن اللانهائى الذى شعر قلبى فجأة أنه ينغمر فيه .

— ١٠ —

عدت إلى غرفتى فى سكون . وارتميت بملابسى كاملة فوق سريرى وحاولت أن أقرأ ، أن أكتب ، أن أفكر ، أن أتلهى ببعض عمـــل ذهنى شاق يمكن أن يسيطر على اضطرابى . ولـكن كان ذلك كله عبثاً . كان الاضطراب الباطنى من الشدة بحيث لم أستطع أن يكون لدى فكران ، وبحيث أن إنهاك قواى نفسه لم يمـــكن أن يفضى إلى النوم . أبداً ما تراءت صورة جرازيلا لغاية الآن فى مثل هذه الفتنة ، وهذا العناد أمام أفكارى . كنت أستمتع بها كشىء يراه المرء كل يوم ولا يشعر بعذوبته إلا عندما يفقده . حتى جمالها نفسه لم يكن لى شيئاً يذكر حتى آنذاك فقد كنت أخالط بين التأثير الذى أحسه منه وبين أثر الصداقة التى يعبر عنها محياها . لم أكن أدرى أن ثمة مثل هذا القدر من الإعجاب

ينطوى تحت علاقتى بها . ولم يزل يخالجنى ظن فى أن حنانها ينطوى على ذرة من غرام .

لم أدرك ذلك كله ، حتى فى الجولات الطويلة التى قام بها قلبى خلال ما انتابنى تلك الليلة من سهاد . كان كل شىء مختلطا فى ألمى شـــأنه فى عواطفى . كان مثلى كمثل رجل دوخته ضربة مفاجئة ولا يدرى تماما مما يتألم ولكنه يتألم من كل موضع .

وغادرت سريرى قبل أن يسمع فى البيت أى صوت . ولست أدرى أى غريزة حملتنى على الابتعاد بعض الوقت ، كأن وجودى قمين بأن يزعج فى لحظة كهذه محراب تلك الأسرة التى كان مصيرها يضطرب هكذا أمام رجل غريب .

خرجت منبها بيبو إلى أنى سوف لا أحضر لبضعة أيام . واتخذت بالصدفة الاتجاه الذى رسمته لى أولى خطواتى . تبعت أرصفة نابولى المستطيلة ، وساحل ريزينا ، وبورنيكا ، وسفـــح بركان فيزوف . واستعنت بأدلاء فى تورى دبل جريكو ، ورقدت على حجر عند باب صومعة سان سالفاتورى ، فى المشـــارف التى تنتهى عندها الطبيعة المأهولة وتبدأ منطقة الحمم والنيران . وإذ كان البركان منذ مدة فى حالة ثوران ، وينفث فى كل هزة سحبا من الرماد والأحجار كنا نسمعها تنحدر فى الليل إلى خور الحمم عند سفح الصومعة ، فقد رفض أدلائى أن يرافقونى أبعد من ذلك . فصعدت وحدى ، تسلقت بعناء المخروط الأخير غارساً قدمى ويدى فى رماد كثيف ومشتعل ينهار تحت ثقل الإنسان وكان البركان يهدر ويرعد بين لحظة وأخرى وكانت الأحجار المحترقة والتى مازالت متوهجة تنهمر حولى كالمطر هنا وهناك ثم تنطفىء فى الرماد .

وما من شيء أوقفني. وصلت إلى أقصى حافة فوهة البركان وجلست.

رأيت الشمس تشرق على الخليج، وعلى الريف، وعلى مدينة نابولي الباهرة. وكنت متبلد الإحساس وفاتراً إزاء هذا المشهد الذي يفد السياح من بعد ألف فرسخ معجبين به. لم أكن أبحث في هذا الخضم الهائل من الضياء، والبحار، والسواحل، والعمائر التي تلفحها الشمس، إلا عن بقعة بيضاء صغيرة وسط خضرة الأشجار الداكنة على ظن أن امـيّز كوخ أندريا. ليس يجدي الإنسان أن يتأمل المدى ويطوقه فإن الطبيعة بأسرها لا تتألف في نظره إلا من نقطتين أو ثلاث نقاط محسوسة هي مناط روحه بجماعها. احذف من الحياة الفؤاد الذي يهواك: فماذا يبقى لك فيها؟ كذلك الأمر فيما يتعلق بالطبيعة. امح منها الموضع أو البيت الذي تنشده أفكارك أو تعمره ذكرياتك فما هي سوى فراغ صارخ يغوص فيه النظر دون أن تجد قاعا ولا قراراً.

هل يجوز أن يدهشنا بعد ذلك أن أسمى مشاهد الخليقة يتأملها السياح بعين متباينة؟ ذلك أن كل امرئ يحمل معه وجهة نظره. وإن سحابة تغشى النفس لتغطى الأرض وتحيل لونها أكثر مما تفعل سحابة فوق الأفق. إنما المشهد في المشاهد. لقد جربت ذلك.

— ١١ —

كنت أنظر كل شيء، ولا أرى أي شيء. عبثاً كنت أهبط كالمخبول متشبثا بقرون الحمم الخامد، حتى قاع الفوهة. عبثا اجتزت الشقوق العميقة التي كان ما يتصاعد منها من دخان ولهيب زاحف يخنقني

ويحرقني . عبثا كنت أتأمل حقول الكبريت والملح المتبلور الفسيحة الشبيهة بحقول جليد تلونها ألسنة النار هذه . فقد لبثت جامداً حيال الإعجاب مجردي حيال الخطر . كانت روحي في موضع آخر وعبثا أردت أن أسترجعها .

وفي المساء هبطت عائدا إلى الصومعة . وصرفت أدلائي ، وعدت أدراجي خلال كروم بومبي . وأنفقت يوما بطوله متجولا في الشوارع المقفرة بتلك المدينة المطمورة . هذا القبر الذي فتح بعد ألف سنة معرضاً للشمس من جديد شوارعه وآثاره وفنونه خلفتني متبلد الإحساس مثلما خلفني بركان فيزوف . فإن روح هذا الرماد كله قد ذرتها منذ عديد القرون ريح الله حتى أنها لم تعد تخاطب قلبي . كنت أطأ بقدمي رفات الناس هذه في شوارع مدينتهم المندثرة بعدم المبالاة التي أطأ بها أكوام الأصداف الفارغة التي يطرحها البحر إلى شطآنه . إن الزمان بحر مهول يطفح ، كالبحر الآخر ، رميم البشر . والمرء لا يمكن أن يبكي على كل شيء . فلكل امرئ آلامه ، ولكل عصر إشفاقه وحنانه ، وفي هذا كل الكفاية .

وإذ غادرت بومبي ، توغلت في حلوق جبال كاستلاماري وسورانتي الكثيفة الأحراش . وعشت هناك بضعة أيام ، منتقلا من قرية إلى أخرى ، وتاركا لرعاة الماعز اقتيادي إلى أشهر البقاع في جبالهم . وحسبني الناس رساما يدرس المناظر ، لأني كنت أدون من حين إلى حين بعض المذكرات في كراسة رسم صغيرة كان قد تركها لي صديق . وما كنت سوى روح ضالة تهيم هنا وهناك في الريف لكي تفني الأيام . وكان شيء ينقصني ، حتى نفسي .

ولم أطق الاستمرار أطول من ذلك . فعندما انقضت أعياد الميلاد وكذلك يوم رأس السنة هذا الذى جعل الناس منه عيداً كأنما ليغروا الزمن وليستعطفوه بالأفراح والا كا ليل مثل ضيف نظ صارم يريدون إلانة قلبه ، عجلت بالعودة إلى نابولى . عدت إليها ليلا ومتردداً ، نهبا بين اللهفة على رؤية جرازيلا ، والنزع لعلى بأنى ان أعود أراها ، وتوقفت عشرين مرة ، وجلست على حواف القوارب عندما دنوت من مرجلينا .

وقابلت بيبو على بعد خطوات من المنزل . فأطلق صيحة غبطة عندما رآنى ، ووثب متعلقا برقبتى كأنه أخ صغير . واقتادنى تجاه قاربه ، وروى لى ما قد وقع منذ غيابى .

كل شىء فى البيت تغير أيما تغيير . فجرازيلا لم يكن لها عمل إلا البكاء منذ رحلت . ولم تعد تختلف إلى المائدة لتناول الوجبات ولم تعد تشتغل فى صناعة العقيق . كانت تنفق أيامها جميعا معتكفة فى غرفتها ممتنعة عن الرد إن دعاها أحد ، وتنفق لياليها جميعا متجولة فى الشرفة . وكان يقال فى الجيرة : إنها قد جنت أو إنها قد عشقت ، إلا أنه كان يعرف أن هذا غير صحيح .

قال الطفل : إن مأتى الشر كله أنهم أرادوا خطبتها إلى سيكو ، وأنها ليست تريد . لقد رأى بيبو كل شىء وسمع كل شىء . كان أبو سيكو يقبل كل يوم طالبا رداً من جده وجدته . ولم يكف هذان عن تعذيب جرازيلا حتى تعرب آخر الأمر عن رضاها . إلا أنها لم تكن تشاء أن تسمع حديثاً فى هذا الشأن ، كانت تقول إنه أحرى بها أن تلتمس الخلاص فى جنيف : وهذا عند الكاثوليك من أهل نابولى تعبير مرادف لهذا التعبير « أحرى بى أن أرتد عن دينى » . وهو تهديد

أنكى من التهديد بالانتحار : فهو بمثابة الانتحار الأبدى للروح .
لقد أيس أندريا وزوجته ، اللذان يعبدان جرازيلا ، من مقاومتها ومن ضياع آمالهما فى تزويجها فى وقت معا . جعلا يتضرعان إليها بحق شعرهما الأشيب ، ويتحدثان إليها عن شيخوختهما ، وعن تعاستها وعن مستقبل الطفلين . وعندئذ كان قلب جرازيلا يلين . فجعلت تحسن شيئا ما لقاء سيكو المسكين ، الذى يأتى من آن لآن ليجلس ذليلا فى الليل على باب غرفة بنت عمته ، ويلاعب الطفلين . وكان يقرئها تحية الصباح ويودعها من خلال الباب ، ولكنها كانت قلما ترد على كلمة من كلماته . وكان ينصرف متبرما لكن مصمما ، ثم يعود فى الغداة على ما هو عليه . وقال بيبو « إن أختى مخطئة خطأ فادحا ، فإن سيكو يحبها حبا جما ، وهو طيب جدا ، وهى سوف تكون سعيدة » . ثم أضاف ، وأخيراً فقد استجابت لضراعة جدى وجدتى ولدموع سيكو فواربت الباب قليلا ، ومدت له يدها ، فمرر فى إصبعها خاتما ووعدت بأنها سوف تدعهم يخطبونها غدا . ولكن من يدرى ما إذا كانت لا تواتيها غداً نزوة جديدة ؟ هى التى كانت بالغة الرقة والمرح ! رباه لشد ما تغيرت ! لعلك ألا تعرفها ! . »

— ١٢ —

ونام بيبينو فى القارب . أما وقد علمت منه بما حدث فقد ولجت البيت .

كان أندريا وزوجه وحدهما على السطح . واستقبلانى بمودة وترحيب ، وغمرانى بتأنيب رقيق على غيابى الطويل . ورويا لى متاعبهما وآمالهما فيما يتعلق بجرازيلا . قال لى أندريا : « لو قد كنت هنا ، أنت

الذى تحبه جرازيلا كثيرا ولا تقول له كلا أبدا ، لعاونتنا أيما عون. لشدما نحن مسروران لرؤيتك ثانية ! غدا سوف تعقد الخطبة ، وسوف تحضرها ، إن وجودك جلب لنا السعادة دائما » .

شعرت برعدة تسرى فى جميع أوصالى إزاء أقوال أولئك القوم المساكين هذه . كان هاتف يهتف بى أنى مأتى بلاثمهم . وكنت أتحرق وأرتعد لرؤية جرازيلا . وتصنعت أن أتحدث إلى أبويها بصوت عال، وأن أروح وأجيء أمام بابها مثل امرىء لا يروم أن ينادى ولكن يرغب أن يسمع . ولكنها لبثت صماء بكماء ولم تظهر . فولجت غرفتى ورقدت . وأخيراً استولى على ذهنى ضرب من الهدوء الذى يولده دائماً فى النفس المضطربة انقضاء الشك والاستيقان من أمر أى أمر ، حتى لو كان الكرب . وقعت على سريرى مثل وقر موات ليس به حراك. ولم ألبث أن ألقانى ضنى أفكارى وأعضائى فى أضغاث الأحلام ثم فى غناء السبات .

— ١٣ —

أرقت وتنبهت قليلا مرتين أو ثلاث مرات فى تلك الليلة . كانت ليلة من ليالى الشتاء هذه الأندر ولكن الا شأم منها فى أية بقعة أخرى فى الأقاليم الحارة وعلى شاطىء البحر . كانت ومضات البرق تندفق بلا انقطاع خلال فروج مصراعى نافذتى كأنها تحديقات عين من نار على جدران غرفتى . وكانت الريح تعوى كأنها قطيع من الكلاب الجائعة . وكانت اللطمات الصماء التى يكيلها البحر المصطخب لساحل مارجلينا

تثير في الشاطىء كله دويا شديدا كأنما قد ألقت فيه كتلا من الصخور .

وكان بابي يهتز ويصطفق من لفحات الريح . وخلت مرتين أو ثلاث مرات أنه انفتح ، وأنه انغلق من تلقاء نفسه ، وأني سمعت صراخا مختنقا ونشيجا بشريا يختلط بهزيم الرعد وأنين العاصفة . بل ظننت ذات مرة أن أقوالا تتردد وأن اسمى ينطق به صوت واقع في شدة لعله يستغيث طالبا نجدة ! فنهضت وقعدت في فراشي ، غير أني لم أعد أسمع شيئا : فاعتقدت أن العاصفة والحمى ، والأحلام قد أغرقتني في الأوهام ، واستغرقت ثانية في النوم .

وفي الصباح كانت العاصفة قد مهدت للشمس الساطعة . وأيقظني نشيج حقيقي وولولة يأس من الصياد الفقير وزوجته وهما يندبان على عتبة جرازيلا . فإن المسكينة الصغيرة قد لاذت بالفرار أثناء الليل . لقد استيقظت وعانقت الأطفال مشيرة إليهم بالتزام السكوت . وتركت فوق السرير كل الجميل من ثيابها ، وأقراطها ، وعقودها ، والنزر اليسير من النقود التي تملكها .

وكان الأب يمسك في يده بقصاصة ورق مشوبة ببضع قطرات من الماء ، وجدت مثبتة بدبوس فوق السرير . وكان بها خمسة أسطار أوستة ، رجاني حائراً أن أقرأها . ولم تكن تتضمن سوى تلك الكلمات المكتوبة في ارتجاف أثناء نوبة الحمى ، والتي وجدت مشقة في قراءتها ، لقد وجدت شططا ، . إن هاتفا ينبئني بأن ذلك لا قبل لي به . ، أقبل أقدامكم أن تصفحوا عني . أفضل أن أصير راهبة . سروا عن سيكو وعن السيد . .

سوف أصلى من أجله ومن أجل الطفلين ، أعطوهما كل ما امتلك .
وأعيدوا الخاتم إلى سيكو ... »

لدى قراءة هذه الأسطر فاضت دموع الأسرة كلها من جديد .
وإذ سمع الطفلان الصغيران ، وكانا لا يزالان عاريين ، أن أختهما قد رحلت إلى الأبد ، خالطا نواحهما بنحيب الشيخين ، وطفقا يعدوان فى أرجاء المنزل منادين جرازيلا !

— ١٤ —

سقطت القصاصة من يدى . . وأردت أن ألتقطها ، فرأيت على الأرض ، تحت بابى ، زهرة رمان كنت قد أعجبت بها يوم الأحد السابق فى شعر الفتاة ، والأيقونة الصغيرة التى كانت تحملها دائما والتى علقتها منذ بضعة أشهر فى ستارة سريرى إبان مرضى . ولم يعد يخالجنى الشك فى أن بابى قد فتح فعلا ثم أغلق أثناء الليل ، وأن الكلمات والشهقات المختنقة التى ظننت أنى سمعتها وحسبتها أنات الريح كانت وداع الصبية المسكينة ونشيجها .

وكان موضع « جاف » على العتبة الخارجية لمدخل غرفتى ، وسط آثار المطر التى تلطخ بقية الشرفة كلها ، يثبت أن الفتاة كانت قد جلست هناك خلال العاصفة ، وأنها قد أنفقت ساعتها الأخيرة فى الأنين والنحيب ، قابعة أو راكعة فوق هذا الحجر . والتقطت زهرة الرمان والأيقونة ودسستهما فى صدرى .

ولقد تأثر القوم المساكين ، فى غمار يأسهم ، لرؤيتى أبكى مثلهم .

وفعلت كل ما فى وسعى كيما أسرى عنهم . وتم الاتفاق على أنهم إذا عثروا على ابنتهم فلن يعود أحد فيحدثها عن سيكو ، وكان سيكو ذاته ، الذى ذهب بيبو ليحضره ، أول من ضحى بنفسه فى سبيل سلام الدار، وعودة بنت عمته . ومهما كان مبلغ يأسه فقد كان جليا أنه سعيد لأن اسمه ورد فى القصاصة برقة ، وأنه وجد ضربا من السلوة فى الوداع نفسه الذى سبب يأسه . قال : « لقد فكرت فى على كل حال » ، ثم كفكف دمعه ، وفى الحال اتفق فيما بيننا على أننا ان ننعم بلحظة من الراحة قبل أن نقف على أثر الهاربة .

وانطلق الأب وسيكو على عجل ليستقصوا فى أديرة النساء المتعددة فى المدينة . وهرع بيبو والجدة إلى جميع أتراب جرازيلا اللاتى يشتبهن فى أن تكون أسرت لهن بشىء عن أفكارها وهربها . أما أنا ، فلأنى غريب ، تكفلت بزيارة الأرصفة ومرافىء نابولى ومراسى البلدة لكى أسأل رجال الشرطة ، وقباطنة السفن ، والنوتية ، ولكى أعرف ما إذا كان أحدهم قد شاهد فتاة روسيدية تخرج من المدينة وتبحر فى الصباح .

وانقضى الضحى فى بحوث راحت سدى . وعدنا جميعا إلى الدار صامتين مكروبين لكى نروى لبعضنا بعضنا مساعينا ، ولكى نتسار من جديد وما من أحد فيما خلا الطفلين ، واتته القدرة على أن يضع لقمة فى فمه . وجلس أندريا وزوجه كسيرى الخاطر على عتبة غرفة جرازيلا . وعاد بيبو وسيكو إلى التجول بغير أمل فى الشوارع وفى الكنائس التى تفتح ليلا فى نابولى للطلبة والتماس البركة .

خرجت وحدى بعدهم ، وسلكت فى حزن وبالصدفة الطريق المفضية إلى كهف اليوزيليب . اجتزت الكهف ، ومضيت حتى شاطىء البحر الذى تستحم فيه جزيرة نيزيدا الصغيرة .

وعلى شاطىء البحر تطلعت عيناى إلى جزيرة بروسيدا التى ترى من هناك بيضاء ناصعة كأنها سفط سلحفاة فوق زرقة الأمواج . وكان من الطبيعى أن تتطلع أفكارى إلى تلك الجزيرة وإلى أيام الأعياد هذه التى أنفقتها فيها مع جرازيلا . وكان يقودنى إليها الإلهام . تذكرت أن الفتاة كان لها هناك صديقة تناهزها فى العمر ، ابنة رجل فقير من سكان الأكواخ المجاورة ، وأن تلك الفتاة كانت ترتدى زياً خاصاً يختلف عن زى أترابها ، وأنى ذات يوم سألتها عن دوافع هذا الاختلاف فى زيها ، فأجابتنى بأنها راهبة ، ولو أنها تقيم حرة لدى أبويها فى حالة وسط بين حياة الأديرة وحياة الأسرة . وقد أرتنى كنيسة ديرها . وكان ثمة كثير منها فى الجزيرة ، وكذلك فى إيسكيا وفى قرى ريف نابولى .

خطرت لى فكرة أن جرازيلا ، وقد شاءت أن تنذر نفسها لله ، ربما مضت لتبوح بسرها إلى هذه الصديقة وتسألها أن تفتح لها أبواب ديرها . ولم أدع لنفسى متسعا من الوقت لأفكر ، وكنت سائراً فعلا بخطى حثيثة على طريق بوزوليس ، أقرب مدينة إلى بروسيدا توجد بها قوارب .

بلغت بوزوليس فى أقل من ساعة ، وعدوت إلى المرفأ عدوا ، ودفعت أجرا مضاعفا لجدفين لكى أحثهما على طرحى فى بروسيدا رغم هياج البحر وانسدال الليل ووضعا قاربهما فوق الموج ، وأمسكت معهما بزوج من المجاديف ، وجاوزنا رأس مسينا بعناء . وبعد ساعتين بلغت الجزيرة وجعلت أتسلق وحيدا — لاهثا مبهور الأنفاس ، مرتعد الأوصال ، متخبطا فى الظلمات ، متلقيا لطمات ريح الشتاء — أتسلق مدارج المطلع الطويل الذى يفضى إلى كوخ أندريا .

— ١٦ —

قلت لنفسى « إذا كانت جرازيلا فى الجزيرة ، فلا بد أن تكون أتت هنا أولا ، مدفوعة بالغريزة الطبيعية التى تسوق الطير إلى عشه والطفل نحو بيت أبيه . وإذا كانت لم تعد فيها فإن بعض الآثار ستنبئنى بأنها قد مرت بها . ولعل هذه الآثار أن تقودنى إلى حيث توجد . وإذا لم أجدها أو أجد آثارا لها فقد قضى الأمر ، فإن أبواب قبر حى تكون قد أغلقت على شبابها إلى الأبد . »

وطئت آخر درجة فى المطلع ، وأنا نهب لهذا الشك المروع . وكنت أعرف فى أى شق بالصخر قد خبأت الأم العجوز عند رحيلها مفتاح المنزل . فأزحت اللبلاب جانبا ودسست فيه يدى . وجعلت أصابعى تتحسسه بحثا عن المفتاح ، وقد تقلصت خشية أن تحس فيه برودة الحديد التى ما كانت لتدع لى أى أمل . . .

لم يكن المفتاح هناك . فأطلقت صيحة فرح مختنقة ودخلت إلى الفناء

فى خطوات صامتة . وكان الباب والنوافذ موصدة ، وكان بصيص خافت يتسلل من شقوق النافذة وينسدل على أوراق شجرة التين من مصباح موقد في المسكن . من فى استطاعته أن يجد المفتاح ، ويفتح الباب ، ويضيء المصباح إن لم يكن ابنة المنزل ؟ لم يخالجنى الشك فى أن جرازيلا على قيد خطوتين منى ، وجثوت على ركبتى فوق آخر درجات السلم لأشكر الملك الذى اقتادنى إليها .

— ١٧ —

ما من صوت كان يصدر من الدار . وألصقت أذنى بالعتبة ، وخلت أنى أسمع صوت تنفس واهيا وما يشبه النشيج داخل الغرفة الثانية . فهززت الباب هزا رفيقا كما لو كان قد ارتج فقط فوق مفاصله بفعل الريح ، بقصد استرعاء انتباه جرازيلا رويدا رويدا ، وحتى لا يقتلها الرنين المفاجيء وغير المتوقع لصوت آدمى عندما يناديها . وتوقف التنفس . وعندئذ ناديت جرازيلا بصوت خفيض وبأهدأ وأرق لهجة أمكننى أن أجدها فى قلبى . . فجاوبتنى من داخل الدار صرخة واهنة .

فناديت من جديد ، مناشداً إياها أن تفتح لصديقها ، لأخيها الذى جاء وحيداً ، فى الليل ، خلال العاصفة ، يرشده ملكه الطيب — جاء يبحث عنها ، ويكتشف مكانها ، وينتزعها من لجة يأسها ، ويحمل لها صفح أسرتها ، وصفحه ، ويعيدها إلى واجبها ، إلى سعادتها ، إلى جدتها المسكينة ، وإلى عزيزيها الصغيرين !

فصاحت صيحة قوية : « رباه ! هو ذا اسمي ! هو ذا صوته ! »

فناديتها نداء أرق « جرازييليلينا » ، اسم التدليل هـذا الذى كنت أدعوها به أحيانا عندما نخرج سويا فقالت « أوه ! هو ذا لعمرى ! لم أخطىء فى ظنى ! رباه ! هو ذا ! » .

وسمعتها تتحامل لتنهض فوق الأوراق الجافة التى تخشخش لدى كل حركة من حركاتها ، وتخطو خطوة لكى تقبل فتفتح لى ، ثم تسقط ثانية من الإعياء ، أو من الانفعال ، دون أن تواتيها القدرة على التقدم .

— ١٨ —

ولم أعد أتردد ، فدفعت الباب القديم بكتفى بكل القوة التى أمدنى بها جزعى وقلقى ، فانهار المزلاج وانفصل تحت ضغط الجهد ، واندفعت إلى داخل الدار .

وكان المصباح الصغير الذى أشعلته جرازيلا من جديد أمام صورة العذراء ينيره ببصيص ضئيل . وهرعت إلى داخل الغرفة الثانية حيث سمعت صوتها وسقطتها ، وحيث اعتقدت أنها مغشى عليها . ولكنها لم تكن كذلك ، كل ما هنالك أن ضعفها خذل جهدها ، فقد سقطت ثانية فوق كومة الخلنج الجاف التى اتخذت منها سريرا ، وعقدت يديها عندما أبصرتنى . وكانت عيناها اللتان أذكتهما الحب ، وفتحتهما الدهشة ، وأضناهما الهوى ، تتألقان مستقرتين كأنهما نجمتان يهبط ضياؤهما من السماء ، وتخالهما تمعنان فيك النظر .

وسقط رأسها ، الذى حاولت أن ترفعه ، سقط ثانية على الأوراق بفعل الضعف ، وقد انقلب إلى الخلف ، وكأنما قد تحطم منها العنق . وكانت شاحبة شحوب النزع الأخير ، فيما خلا تفاحتى الوجنتين المخضبتين بورد نضير . وكانت بشرتها المرمرية الجميلة مشوبة بعروق من الدموع والغبار الذى علق بها . وكان ثوبها الأسود يختلط باللون الأسمر للأوراق المنشورة على الأرض والتى اضطجعت عليها . وكانت قدماها الناصعتان كالمرمر تتجاوزان بطولهما كله كومة الخلنج وتتمددان فوق الحجر . وكانت الرعدة تسرى فى جميع أوصالها وتصطك منها أسنانها كأنها صناجات فى يد صبى . وكانت عصابة الرأس الحمراء التى اعتادت أن تلف فيها جدائل شعرها الجميل الطويلة الفاحمة — كانت مفككة ومتهدلة كأنها قناع ينسدل فوق جبينها حتى ضفاف عينيها ، وكان جلياً أنها قد استخدمتها لتدفن محياها ودموعها فى الظلام وكأنما تدفنهاسلفاً فى سكون الكفن ، وأنها لم ترفعها ثانية إلا عندما سمعت صوتى وقعدت كى تقبل فتفتح لى .

— ١٩ —

ارتميت جاثيا على ركبتى بجوار «الخلنج» ، وتناولت يديها المثلجتين فى يدى ، ورفعتهما إلى شفتى لكى أدفئهما بأنفاسى ، فتساقطت عليهما قطرات من عبراتى . وفهمت من ضغط أصابعها المرتجفة أنها قد شعرت بعطر القلب هذا وأنها تشكرنى عليه ، وخلعت معطف البحارة وطرحته فوق قدميها الحافيتين . ودسستهما فى لفافات الصوف .

وتركتني أعمل متابعة إياى فقط بعينيها وقد ارتسم فيهما تعبير عن النشوة السعيدة ، لكن دون أن تستطيع أن تؤدى لنفسها أية حركة ، شأنها شأن طفل يستسلم للتقميط واللف فى مهده . ثم رميت حزمتين أو ثلاث حزمات من الخلنج فى موقد الغرفة الأولى لتدفئة الجو قليلا . وأشعلته من شعلة المصباح ، وعدت أجلس على الأرض بجوار فراش الأوراق .

قالت لى فى صوت خفيض ، ولهجة رقيقة ، متزنة ورتيبة ، كما لو أن صدرها قد فقد فى وقت واحد كل اختلاج وكل نغم ولم يعد يحتفظ إلا بلحن واحد فى الصوت : « كم أحس أنى فى حال طيبة . عبثا حاولت أن أخبىء الأمر عن نفسى . عبثا حاولت أن أخبئه دائماً عنك ، لقد أرادوا أن يقدموا لى خطيباً ، إنما أنت خطيب روحى ؛ إن أهب نفسى لشخص غيرك على ظهر الأرض . لأنى وهبتك نفسى سراً ؛ إما أنت على الأرض ، وإما الله فى السماء ! . . . ذلك هو النذر الذى نذرته أول يوم فهمت فيه أن قلبى مريض بك . أعرف جيداً أنى لست إلا فتاة فقيرة غير جديرة بأن تمس قدميك وحدهما بفكرها . لذلك لم أسألك قط أن تحبنى . والآن ، احتقرنى ، اسخر منى ، اسحقنى بقدميك ، اهزأ بى ، إن شئت ، كما تهزأ بمجنونة تتخيل نفسها فى أسمالها ملكة . اجعل منى أضحوكة للعالمين . سأقول لهم : إنى أحبه . ولو كنتم فى مكانى لفعلتم مثلما فعلت ، إما كنتم أحببتموه وإما متم ! . »

— ٢٠ —

ظللت غامضا عينى ، لا أجرؤ أن أرفعهما إليها ، خشية أن يعبر بصرى

أكثر مما ينبغى ، أو ألا يعبر بما يكفى عن مثل هذه النشوة . ومع ذلك فلدى هذه الكلمات ، رفعت جبينى المعتمد على يدى ، وغمغمت ببعض الألفاظ .

فوضعت أصابعها على شفتى . « دعنى أقل كل شىء : إنى الآن مسرورة ، لا يخالجنى أى شك ، فقد اتضحت إرادة الله . اسمعنى :

« أمس عندما فررت من البيت بعد أن أنفقت الليل بطوله فى المجالدة والبكاء على بابك ، عندما وصلت إلى هنا خلال العاصفة ، إنما وصلت معتقدة أنى لن أراك أبدا ، أشبه بميتة تسير من نفسها إلى قبرها . كنت قد اعتزمت أن أترهب غدا حالما يطلع النهار . لما وصلت إلى الجزيرة فى الليل ، وذهبت أطرق باب الدير ، كان الوقت متأخراً فوجدت الباب مغلقاً ، ورفضوا أن يفتحوا لى ، فحضرت إلى هنا كى أنفق الليل ، وأقبل جدران بيت أبى قبل أن أدخل بيت الله وقبر قلبى . واستكتبت طفلا كتاباً إلى إحدى صديقاتى كيما تحضر فتأخذنى غداً . وأخذت المفتاح ، وأضأت المصباح أمام صورة العذراء . وركعت على ركبتى ونذرت نذرا ، نذرا أخيرا ، نذر الأمل حتى فى هوة اليأس . لأنك ستعرف ، إن أحببت يوما ، أنه يبقى دائما فى أعماق الروح قبس أخير من النار ، حتى لو ظن المحب أن كل شىء قد انطفأ . قلت لها : « أيتها الحامية القديسة ، ابعثى لى أمارة على صدق إلهامى تؤكد لى أن الحب لا يخدعنى ، وأنى أقدم حقيقة إلى الله حياة لا يجوز أن يملكها سواه . »

« هاك آخر ليلة أقضيها بين الأحياء . لا أحد يعرف أين أنفقها .

لعلهم أن يجيئوا غدا ليبحثوا عنى هنا وقد غدوت فى غير هذا المكان.
فإن كانت الصديقة التى أرسلت أباغها هى التى تأتى أولا فسوف يكون
ذلك أمارة على أنى يجب أن أنفذ نيتى ، وسأتبعها إلى الدير إلى الأبد.

« أما إن كان هو الذى يظهر قبلها ، هو الذى يحضر، يرشده تمساكى
ليكتشفنى ويوقفنى على حافة حياتى الأخرى . . أوه ! عندئذ يكون
ذلك أمارة على أنك لا تريديننى ، وأنى يجب أن أعود معه كى
أهواه بقية أيامى ! »

وأضفت « عمرى أن يكون هو ! إيت بهذه المعجزة فوق معجزاتك،
إن كانت هذه مشيئتك ومشيئة الله ، وكى أحصل عليها فإنى أهبك
هبة ، الهبة الوحيدة التى فى مقدورى أن أقدمها ، أنا التى لا أملك شيئاً.
هاك شعرى ، شعرى المنكود الطويل الذى يحبه والذى طالما فكه
ضاحكا كى يراه يتموج على كتفى فى الهواء ، خذيه ، إنى أهبك إياه،
وسوف أقصه بنفسى لكى أثبت لك أنى لست أبقى على شىء ، وأن
رأسى ينصاع سلفا المقص الذى قد يقصه عندما انفصل عن الدنيا » .

وعلى أثر هذه الكلمات ، أزاحت بيدها اليسرى المنديل الحريرى
الذى يعصب رأسها ، وإذ تناولت بالأخرى اللفة الطويلة لشعرها
المقصوص ، والملقى بجوارها على سرير الأوراق ، أرتنى إياه وهى
تبسطه . ثم استأنفت بصوت أقوى وبلهجة غبطة صادقة : « لقد أتت
العذراء بالمعجزة ! لقد أرسلتك ! سأذهب أنى تشاء . إن شعرى لها ،
أما حياتى فلك ! ».

فارتميت على جدائل شعرها الجميل الفاحم المقصوصة ، التى ظلت فى يدى كأنها غصن تموّات منتزع من شجرة . وغمرتها بقبلات صامتة وضغطتها إلى صدرى ، ورويتها بدموعى كأنها جزء منها نفسها أدفنه فى الأرض وهو رميم . ثم رفعت عينى إليها ثانية ، فأبصرت رأسها الفاتن الذى رَفَسَمَتْهُ أجردًا تماما ، لكن كأنما زانته تضحيتها وجلته ، يتألق غبطة وحبا وسط الشقق الفـــاحمة وغير المتساوية من شعرها المقصوص أو الأحرى الممزق بالمقص . بدت لى أشبه بتمثال «الشباب» المجدوع الذى يزيد جدع الزمان نفسه من فتنته وجماله إذ يضيف الإشفاق إلى الإعجاب . إن اعتسافها هذا لنفسها ، وانتحار جمالها هذا فى سبيل حبى ، كالا لقلبى ضربة زعزع ثقلها كيانى بأسره وطرحت جبينى فى الأرض تحت قدميها . لقد أحسست ماذا يعنى الحب وأخذت هذا الإحساس على أنه الحب !

— ٢١ —

اعتقدت أنى كنت أعبدها كما يليق أن تعبد مثل هذه البراءة ، وهذا الحسن ، وهذا الحب . وقلت لها ذلك باللهجة الصادقة هذه التى يبعثها الانفعال ، وبالوجد المتصل هذا الذى تبعثه الوحشة والليل ، واليأس ، والدموع : وصدقت به ، لأنها كانت فى حاجة إلى التصديق به كى تعيش ، ولأنها كانت تملك فى نفسها قدرا من العاطفة يكفى لتغطية النقص فى ألف قلب آخر .

انقضى الليل بطوله فى سمر آمن ، لكن ساذج وطاهر ، سمر مخلوقين

يكشفان كشفاً بريئاً عن حنانهما ، ويريدان لو طال الليل وراء السكون إلى الأبد حتى لا يجىء شىء غريب عنهما فيعترض ما بين الفم والقلب . كانت عفتها وتحفظى الخجلان ، وتحنان روحينا نفسه تبعد عنا كل خطر آخر . كان حجاب دموعنا منسدلا علينا . ما من شىء يبعد عن الشهوة مثلما يبعد الحنان . ولو قد أسىء استغلال مثل هذه الصلة الحميمة لكان تدنيسا لروحين .

استبقيت يديها فى يدى ، وشعرت بالحياة تدب فيها من جديد . وذهبت لأحضر لها بعض الماء العذب كى تشرب من كفى وتمسح جبينها ووجنتيها . وأرثت النار بأن ألقيت فيها ببعض الغصون ، ثم عدت أجلس فوق الحجر بجوار حزمة الريحان التى يستريح عليها رأسها لكى أسمع وأسمع نجوى حبها العذبة ، كيف تتولد فى نفسها على غير وعى منها ، تحت مظهر الصداقة الأخوية الخالصة الرقيقة ، وكيف فزعت فى أول الأمر ثم اطمأنت ، وبأى أمارة عرفت آخر الأمر أنها تحبنى ، وكم علامة إيشار خفيفة خصتنى بها دون وعى منى ، وأى يوم اعتقدت أن سرها انكشف ، وأى يوم ظنت أنها أدركت أنى أبادلها الشعور ، والسويعات ، والحركات والبسمات ، والكلمات منطلقها ومحتبسها ، والإفصاحات وجهينا أو مكنوناتها غير الإرادية خلال هذه الشهور الستة . لقد وعت ذاكرتها كل شىء ، فذكرتها بكل شىء ، كعشب جبال الجنوب الذى أضرمت فيه الريح النار خلال الصيف فيحتفظ بأثر الحريق فى كل مكان مسه اللهب .

— ٢٢ —

وكانت تضيف لنجواها تلك الخرافات العاطفية الغامضة التي تضفي على أتفه الظروف شأنا قيمة ومعنى ، كانت تنضو أمامي ، إن جاز القول ، الحجب التي تغشى روحها حجابا وراء حجاب . كانت تتبدى كأنما أمام الله ، في كامل عُشري سذاجتها وطفولتها ، واستسلامها . ليس الروح إلا لحظة واحدة في الحياة من تلك اللحظات التي تنسكب فيها بجماعها في روح أخرى ، بذلك الهمس الذي لا يفيض من شفاه لا تكفي اندفاقها اللاهج ، وينتهي بها الأمر إلى أن تتلجلج في صوت متهدج ومهوش كقبلات طفل يأخذه الكرى .

ولم يخامرني ملل من الإنصات ، والانتحاب ، والارتعاد ، طوراً بعد طور . ومع أن قلبي ، الذي لم يزل لشبابه طائشا أخضر العود ، لم يكن ناضجا ولا خصبا بما يكفي ليولد من تلقاء ذاته مثل هذه الانفعالات الملهمة والعلوية ، فإن انفعالاتها تلك إذ وقعت في قلبي كان لها أثر بالغ من جدته ومن عذوبته أني وقد شعرت بها ظننت أني أجربها . يا له من خطأ ! كنت أنا الثلج وكانت هي النار . وكنت إذ أعكسها أظن أني أولدها ، ومع ذلك فإن هذا الإشعاع إذ يرتد من أحدنا إلى الآخر ، كان يبدو كأنه يخص الاثنين وأنه يحيطنا بجو شعور واحد .

— ٢٣ —

كذلك انقضت تلك الليلة الطويلة من ليالي الشتاء . وما استغرقت تلك الليلة عندها وعندي إلا ما يستغرقه التنهد الأول الذي يقول « إني أحب » . ولقد بدا لنا . عندما طلع النهار ، أنه جاء يقطع هذه الكلمة التي لم تكد تبدأ .

ومع ذلك فقد كانت الشمس عالية فوق الأفق عندما تسللت أشعتها بين المصاريع الموصدة فكسفت بصيص المصباح . وما إن فتحت الباب حتى رأيت أسرة الصياد بأسرها تصعد الدرج جريا .

إن الراهبة البروسيدية الشابة ، صديقة جرازيلا ، التي بعثت إليها برسالتها البارحة وباحت لها بنيتها في دخول الدير في اليوم التالي ، اشمأزت في يأس قلبها ، فأوفدت في الليل أحد إخوتها إلى نابولي ليبلغ أهل جرازيلا قرارها . وإذ علموا بالعثور على ابنتهم ، وصلوا على عجل ، فرحين أيما فرح ، نادمين أيما ندم ، ليوقفوها على حافة يأسها ، وليعيدوها معهم حرة ومصفوحا عنها .

جثت الجدة على ركبتيها بالقرب من السرير دافعة بذراعيها الاثنين الطفلين الصغيرين اللذين اصطحبتهما لاستعطاف جرازيلا ، ومحتمية بجسديهما كأنما تحتمي بدرع يقيها ملامة حفيدتها . وارتمى الطفلان في ذراعي شقيقتهما في صراخ وعويـــل شديدين . وإذ نهضت جرازيلا كي تداعبهما وتعانق جدتها ، سقط المنديل الذي يعصب رأسها، وأبدى رأسها المجرد من الشعر . وعلى أثر رؤية هذا العدوان على جمالها ، الذي فهموا معناه تمام الفهم ، ارتعدت أوصالهم . وانطلق النشيج من جديد في المنزل . وجعلت الراهبة التي دخلت . تهدئ الجميع وتواسيهم . وجمعت الخصل المنزوعة من جبين جرازيلا ، ومست بها صورة العذراء طاوية إياها في منديل من الحرير الأبيض . ثم وضعتها ثانية في مئزر الجدة . قائلة لها : « احتفظي بها . كي تريها

إياها من آن لآن . فى نعمائها أو فى بأسائها . ولكى تذكريها . عندما تصبح لمن تهواه . أن بواكير اختلاجات قلبها ينبغى أن تكون دائماً لله كما كانت له بواكير حسنها الماثلة فى هذه الخصلات .

— ٢٤ —

وفى المساء عدنا جميعاً إلى نابولى . فكانت الغيرة التى أبديتها فى سبيل العثور على جرازيلا وإنقاذها فى هذا الظرف قد ضاعفت من حب المرأة العجوز والصياد إياى . وما من أحد منهما كان يشتبه فى طبيعة اهتمامى بأمرها وفى عاطفتها نحوى . وكانوا ينسبون نفورها كله إلى بشاعة سيكو . وعقدوا الأمل على أن يقهر العقل والزمن هذا النفور . ووعدوا جرازيلا ألا يلحوا عليها قط فى شأن الزواج . حتى سيكو نفسه توسل إلى أبيه ألا يتحدث فى هذا الأمر . وكان يسأل ابنة عمته ، بخشوعه ، وبسلوكه ، وبنظراته ، أن تغفر له أنه كان سبب شقائها . وعاد الصفو إلى المنزل .

— ٢٥ —

وما من شىء عاد يلقى أى ظل على محيا جرازيلا أو على سعادتى ، اللهم إلا فكرة أن هذه السعادة سوف تنقطع عاجلا أو آجلا بعودتى إلى بلادى . وعندما كان أحد يلفظ اسم فرنسا كانت الفتاة المسكينة يعتورها الشحوب كأنها قد رأت شبح الموت . وذات يوم ، لدى دخولى غرفتى ، وجدت جميع ملابس المدينة ممزقة إرباً وملقاة على أرضية

الغرفة خرقا . وقالت لى جرازيلا . جاثية على ركبتيها . ورافعة نحوى عياها المتغير «أنا التى اقترفت هذه الفعلة أوه ، بربك لا تعنفنى . فكل ما يذكرنى بأنك لابد تارك يوما ثياب النوتية هذه يجعلنى فى أسوأ حال . . . يخيل إلى أنك ستطرح قلبك الحالى لتتخذ قلبا آخر عندما ترتدى ثياب الماضى ! » .

باستثناء هذه العواصف الهينة التى لم تكن تعصف إلا بسبب وقدة حنانها . والتى كانت تسكن عندما تنسكب بضع عبرات من عيوننا . انقضت ثلاثة أشهر على هذا النحو فى غبطة خيالية . كانت أقل حقيقة واقعية تمسنا ـ قمينة بأن تحطمها تحطيما ـ كان فردوسنا قائما فوق سحابة .

كذلك عرفت الحب . من دمعة تترقرق فى مقلة طفلة .

— ٢٦ —

ما كان أسعدنا معا عندما يتهيأ لنا أن ننسى تماما أن ثمة دنيا أخرى قائمة فيما يخرج عنا ، دنيا أخرى غير هذا البيت الصغير القائم على سفح البوزيليب ، تلك الشرفة المشمسة ، تلك الغرفة الصغيرة التى كنا نشتغل فيها لاهيين نصف النهار ، ذلك القارب الراقد فى سريره الرملى على الشاطىء ، وذلك البحر الجميل الذى كانت أنسامه الندية الرتيبة المهمهمة تحمل لنا طراءته وأنغام مياهه .

لكن وا آسفاه . . . كانت ثمة أوقات تعلمنا فيها أن نفكر أن الدنيا

لا تنتهى هنالك ، وأن يوما ما سوف يشرق فلا نجدنا مجتمعى الشمل تحت شعاع واحد للقمر أو للشمس . إنى مخطىء لكثرة لومى جفاف قلبى عندئذ إذا قيس بما شعر به منذئذ . الحق ، أنى بدأت أحب جرازيلا ألف مرة أكثر مما أقررت فى نفسى . ولو كنت لم أحبها إلى هذا الحد ، لما كان الأثر الذى خلفته فى نفسى طيلة عمرى عميقا هذا العمق ، أليما هذا الألم ، ولما أصبحت ذكراها ملتحمة بى مقرونة بمثل هذه العذوبة ، مشوبة بمثل هذا الحزن . ولما أصبحت صورتها فى ذاكرتى ماثلة هذا المثول وناضرة هذه النضرة . ومع أن قلبى كان عندئذ مقدوداً من رمل فإن زهرة الحب كانت قد تأثلت فيه أكثر من موسم كما يتأثل الزنبق بالساحل الصغير على شاطىء جزيرة إيسكيا .

— ٢٧ —

وأى عين مهما حرمت من الشعاع ، وأى قلب مهما خلق جامداً كان لا يحبها ؟ كان يبدو أن جمالها يزداد من المساء إلى الصباح . كان نموها قد توقف ، بيد أنها كانت تكتمل فى كل مفاتنها . مفاتن طفلة بالأمس ومفاتن فتاة متفجرة الأنوثة اليوم . كانت أعطافها الممشوقة تتطور فى لمح البصر ، وكان قوامها يلتف دون أن يفقد من تأوده شيئا . وما كانت قدماها الحافيتان الجميلتان تطآن الأرض التى تخطر عليها بمثل هذه الخفة .

وعاد شعرها ينبت بالعصارة القوية الأثيثة ، عصارة الأعشاب البحرية النامية فى كنف أمواج الربيع الندية . وكثيراً ما تسليته

بقياس نموه بأن أبسطه ملفوفا حول إصبعى فوق حواشى و بلوزتها الخضراء الموشاة . وابيضت بشرتها وتخضبت فى الوقت نفسه بالأصباغ التى كانت مساحيق العقيق الوردية تعفر بها كل يوم اطراف أصابعها . واتسعت عيناها وجملتا تزدادان تفتحا من يوم إلى يوم كأنما لتعتنقا أفقا قد لاح لها على حين فجأة .

وكان لها معى دون قصد ندوات خفر واستحياء فى سكناتها ونظراتها وحركاتها مما لم يكن لها به عهد من قبل . ولقد شعرت بذلك ، وكثيرا ما كنت أنا نفسى بقربها صامتا أيما صمت مرتعدا أيما ارتعاد . حتى لتخالنا شخصين ارتكبا المعصية ، وما نحن سوى طفلين فى أوج السعادة .

ومع ذلك فمنذ زمن كانت مسحة من الحزن تستخفى أو تتبدى خلف هذه السعادة . ولم نكن نعرف لماذا — ولكنها ، هى ، كانت تعرف المصير . كان هذا هو الشعور بقصر الوقت الذى بقى لنا لنقضيه معا .

— ٢٨ —

وكثيراً ما كانت جرازيلا ، بدلا من أن تستأنف عملها بمرح عقب أن تتولى إلباس أخويها الصغيرين وتزيينهما — كانت تظل جالسة عند أسفل دعامة الشرفة ، فى فىء الأوراق العريضة لشجرة تين تنهض من أسفل حتى تصل إلى ما فوق حافة الدعامة . وكانت تستقر هناك بلا حراك ، زائغة البصر ، منفقة أنصاف أيام بتمامها . وعندما كانت

جدتها تسألها عما إذا كانت مريضة كانت تجيب أنها خالية من العلل وإنما قد انتابها الملل قبل أن تزاول العمل. ولم تكن تحب أن يستجوبها أحد عندئذ، كانت تشيح بوجهها عن كل الناس فيما عداى . أما أنا فكانت تحدق فى ملياً دون أن تقول لى شيئا . وفى بعض الأحايين كانت شفتاها تنفرجان كأنها قد تكلمت ، ولكنها كانت تتمتم بألفاظ لا يفهمها أحد من الناس . وكانت ترى غضوناً يسيرة ، بيضاء طورا . ووردية طورا . تسرى فى أديم خديها وترقرقه مثل صفحة الماء الساجى النعسان تختلج تأثرا، عندما كنت أجلس بجوارها ، وأمسك بيدها . وأدغدغ برفق الأهداب الطويلة لعينيها المغمضتين بكنف اليراع أو بطرف عود ريحان . عندئذ كانت تنسى كل شيء ، وتنطلق فى الضحك وفى الحديث كسابق الأوان إلا أنها كانت تبدو حزينة أسيفة عقب أن تمرح وتمزح معى .

كنت أقول لها أحيانا « جرازيلا ، ماذا تشاهدين إذن كذلك هنالك فوق البحر خلال ساعات بطولها ؟ هل ترين هناك شيئا لا نراه نحن ؟ » فكانت تجيبنى « أرى هنالك فرنسا وراء جبال من الثلج » . وكنت أضيف «وماذا ترين إذن من جميل فى فرنسا ؟» وكانت ترد «أرى فيها شخصا يشبهك ، شخصا يسير ، ويسير . ويسير على درب طويل أبيض لا ينتهى . يسير دون أن يلتفت إلى الوراء . يسير دائما . دائما إلى الأمام ، وأنتظر ساعات بطولها ، يداعبنى الأمل دائما أن يلتفت كى يعود أدراجه متأثرا خطواته . ولكنه لا يلتفت» . ثم تخفى وجهها فى حجرها . وعبثا كنت أناديها بأحب أسماء التدليل إليها . فما كانت ترفع جبينها الوضاء .

عندئذ كنت أعود إلى غرفتي حزينا أنا نفسي أيما حزن . وكنت أحاول دائما أن أطالع كي أتلهى . ولكني كنت دائما أرى صورتها قائمة بين عيني وبين الصفحة . وكان يخيل إلى أن الكلمات تتخذ صوتا وأنها تتنهد مثلما يتنهد قلبها نا وكثيرا ما آل بي الأمر إلى أن أبكي وحدي ولكني كنت أشعر بالخجل من السوداء التي تنتابني ولم أكن أقول لجرازيلا قط أني قد بكيت . واشدما كنت مخطئا ، فرب دمعة مني تضفي عليها خيرا أجزيلا .

— ٢٩ —

إني لأتذكر المنظر الذي أضنى قلبها أشد الضنى والذي لم تبرأ منه قط برءا تاما .

كانت قد ارتبطت منذ عهد بعيد بلحمة الصداقة مع فتاتين أو ثلاث فتيات يناهزنها في العمر . وكانت أولئك الفتيات يقطن أحد البيوت الصغيرة في البساتين . وكن يكوين ويرتقن أثواب دار تعليم الفتيات الفرنسيات . وكان الملك مورا قد أنشأ تلك الدار في نابولي لبنات وزرائه وقواده . وكثيرا ما كانت الفتيات البروسيديات أولئك يتحدثن من أسفل ، وهن يؤدين عملهن ، مع جرازيلا التي تطل عليهن من فوق سياج الشرفة ، وكن يرينها الجميل من أشغال الدنتلا والمنسوجات الحريرية ، والقبعات ، والأحذية ، والأشرطة ، والأوشحة التي يجتلبنها أو يوردنها لطالبات هذا الدير . وكانت صيحات دهش وإعجاب لا تنتهي .

وأحيانا كانت العاملات الصغيرات يجئن لاصطحاب جرازيلا إلى القداس أو إلى صلوات الستار الموسيقية (١) فى كنيسة بوزيليب الصغيرة وكنت أنطلق للاقاتهن عندما يأفل النهار ، تنبهنى دقات الناقوس المتوالية إلى أن القسيس يهم بمنح البركة . وكنا نعود ونحن نمرح ونمزح على ساحل البحر ، بأن نتقدم فى إثر الموجة عندما تنحسر ، وأن نفر أمام الموجة عندما تنتشر ، وقد اكتست أقدامنا بوبر من الزبد . رباه ! لكم كانت جرازيلا جميلة وقتئذ ، عندما ترتعد مخافة أن تبتل نعليها الجميلين الموشيين برقائق من الذهب ، فتعدو نحوى فاتحة ذراعيها إلى الأمام كأنما لتحتمى فوق قلبى من الموج المتلهف إلى اعتناقها أو على الأقل إلى لعق قدميها .

— ٣٠ —

لاحظت منذ مدة أنها كانت تخفى عنى شيئا من أفكارها لسعد أدريه . وكان لها أحاديث سرية مع صديقاتها الفتيات العاملات . كان الأمر بمثابة مؤامرة صغيرة غير مسموح بقبولى فيها .

وذات مساء ، كنت أقرأ فى غرفتى ، على بصيص مصباح صغير من الفخار . وكان بابى المطل على الشرفة مفتوحا ليتسرب منه نسيم البحر ، فسمعت ضجة ، همسات مستطيلة بين الفتيات ، وضحكات مكبوتة ، ثم أنات مكتومة ، وألفاظ امتعاض ، ثم انفجارات جديدة لأصوات يتخللها فترات سكون طويلة فى غرفة جرازيلا والطفلين . ولم ألق إليها كثير بال فى أول الأمر .

---

(١) صلاة تؤدى فى العصر أو فى المغرب مصحوبة بتراتيل موسيقية .

بيد أن التكلف نفسه الذى اصطنع فى كتم الهمسات، ونوع السر الذى افترضت قيامه بين الفتيات أثارا فى نفسى حب الاستطلاع. فوضعت كتابى، وأخذت مصباحى الفخارى فى يدى اليسرى وحميته بيدى اليمنى من لفحات الريح حتى لا ينطفىء. واخترقت فى خطو أصم كأنما دبيب قدمى فوق البلاط. وألصقت أذنى على باب جرازيلا. فسمعت دبيب أقدام تذرع الغرفة ذهابا وجيئة، وحفيف ثياب تطوى وتنشر وخشخشة المشابك، والإبر، ومقصات النساء اللاتى كن يضبطن الأشرطة ويشبكن الأوشحة، وهذه الثرثرة، وهاته الطنطنة للأصوات الغضة التى طالما سمعتها فى منزل أمى عندما كانت شقيقاتى يرتدين ثيابهن للرقص.

ولم يكن ثمة حفلة فى البوزيليب فى الغداة. ولم تكن جرازيلا قد خطر ببالها قط أن تبدى حسنها بالتزين. بل إنه لم يكن فى غرفتها مرآة. فقد كانت تتمرأى فى دلو بئر الشرفة، أو بالأحرى كانت لا ترى نفسها إلا فى عينى.

ولم يقاوم حب استطلاعى هذا السر. فدفعت الباب بركبتى. وانصاع الباب وظهرت ومصباحى فى يدى على العتبة.

وأطلقت الفتيات العاملات صرخة، وهربن هروب سرب من الطير لائذات بأركان الغرفة، كأنما قد بوغتن متلبسات بجريمة، وكن ما برحن ممسكات بأدوات الجريمة إحداهن بالخيط والأخرى بالمقص، هذه بالزهور، وتلك بالأشرطة. أما جرازيلا، وقد أوقفت فى وسط الغرفة فوق منصة صغيرة من الخشب، وكأنما قد تحجرت لظهورى المفاجىء، فلم تستطع أن تفر. كانت حمراء مثل الرمانة من

وغضت طرفها ، ولم تجرؤ على أن تنظر إلى ، ولا تكاد تتنفس . ولاذ الجميع بالصمت ، فى انتظار ما سوف أقول ، ولم أقل شيئا . فقد كنت مستغرقا فى الدهش ، وفى التأمل الصامت فيما رأيت .

كانت جرازيلا قد نضت عنها ثيابها الصوفية الثقيلة ، وسترتها السيراء البروسيدية الطراز ، ونعليها المموهين بالذهب الخشبي العقب اللذين كانت تمرح فيهما عادة قدماها العاريتان . وكان قرطاها الكبيران كبر الأساور ملقيين بإهمال فوق سريرها مع ملابسها الصباحية .

وبدلا من هذا الرداء اليونانى البهيج ، الذى يوائم الفقر كما يوائم الثراء ، والذى يترك الحرية والمرونة لجميع أعطاف المرأة « بالجوب » المتدلية إلى منتصف الساق ، « ومقور » الصدر وقصة الأكمام ، كانت أتراب جرازيلا قد ألبسنها ، بناء على توسلاتها ، ملابس وحلى فتاة فرنسية فى الدير تناهزها فى العمر . كانت ترتدى ثوبا من الحرير المتموج ، وحزاما ورديا ، ووشاحا « إيشارب » أبيض ، وقبعة محلاة بأزهار صناعية ، وحذاء من الستان الأزرق ، وجوربين من الحرير المخرم يشفان عن لون اللحم عند عقبي قدميها المستديرين .

وقد لبثت فى هذا الثوب الذى فاجأتها ترتديه مرتبكة ، كما لو كانت قد فاجأتها نظرة رجل وهى عارية . وكنت أنا نفسى أتطلع إليها دون أن أستطيع تحويل عينى عنها ، ولكن دون أن تنم إشارة ، أو بادرة تعجب ، أو ابتسامة ، عما خلفه تنكرها فى نفسى من وقع . كانت دمعة قد انبجست من قلبي . فقد فهمت على الفور تفكير الصبية التعسة . لقد

خجلت من الفارق الطبق بينها وبيني ، فأرادت أن تجرب ما إذا كان تقارب في الثياب يقرب مصيرينا في عيني .

وقد أقدمت على هذه التجربة ، بمعاونة أترابها ، دون أن أدري ، مؤملة أن تبدو بغتة أجمل هكذا في عيني وأقرب إلى نوعي مما تعتقد أن تكون في ثياب جزيرتها ،وطبقتها ، البسيطة . بيد أنها كانت مخطئة وقد بدأت تدرك ذلك من سكوتي . واتخذ سيماؤها مسحة من الجزع القانط ، بل تقريبا من الدموع التي كشفت لي دفين هدفها وخيبة أملها .

ومع ذلك فإنها كانت كذلك جميلة أيما جمال . وكان من شأن تفكيرها أن تزيدها جمالا في عيني ألف مرة . بيد أن جمالها كان أشبه بعذاب كان كأنه صورة لأولئك العذارى الشابات اللاتي رسمهن « كوريج » مسمرات في قائمة خشبية فوق كومة حطب تأهبا للاستشهاد ، متلويات في أغلالهن بغية الإفلات من النظرات التي تدنس عفتهن ، وآسفاه .. كان هذا بمثابة استشهاد أيضا عند جرازيلا المسكينة ، استشهاد حبها .

كان موقفها يماثل سيماءها ارتباكا ، كانت لا تحاور ، حراكا ، خشية أن تسقط عنها أزهارها ، أو أن تتشعث هيئتها . وكانت لا تستطيع السير ، فلكم كان حذاؤها يضغط على قدميها ويضفي على خطوها تعثرا خلابا حتى لكنت تقول إن حواء بحر الشمس هذه الساذجة وقد وقعت في حبائل أول دلال لها . ؟

— ٣١ —

وران الصمت هكذا في الغرفة . لحظة وأخيرا ، وقد آلمني أكثر

عما سرنى هذا التدنيس للطبيعة ، تقدمت نحوها زاما شفتى زمة ساخرة شيئا ما ، وناظراً إليها بتعبير خفيف من التأنيب والتهكم الرقيق ، متظاهرا بأنى عرفتها بصعوبة فى ظل تجملها هذا ، قلت لها « كيف؟ أهذه أنت ياجرازيلا ؟ أوه! من الذى كان يتعرف أبدا الحسناء البروسيدية فى هذه الدمية الباريسية ؟ واستطردت فى شىء من الغلظة « هيا بنا ، ألم تستحى أن تشوهى هكذا ما خلقه الله فى ردائه الطبيعى رائما هذه الروعة؟ عبثا تفعلين . تباً لك ! ان تكونى قط سوى فتاة أمواج ذات قدم بحرية تزين رأسك أشعة سمائك الجميلة . يجب أن ترضى بذلك وأن تحمدى الله عليه . إن ريش طائر القفص هذا لا يصلح قط لعصفور البحر » .

لقد آلمتها هذه الكلمة حتى فطرت قلبها . لم تفهم ما كنت أضمر لعصفور البحر من إيثار شديد، حسبت أنى اتحداها أنها ان تشبه يوما حسناء من جنسى ومن بلدى . وظنت أن كل جهودها لتكون أبهى حسنا من أجلى وكى تخدع عينى عن حالها الرقيقة قد راحت هباء . ودفعة واحدة انخرطت فى البكاء . وإذ عمدت إلى الجلوس على السرير مخبئة محياها بأصابعها ، رجت صويحباتها وهى كظيم أن يهرعن لتخليصها من زينتها البغيضة . وقالت وهى ترتجف ، كنت أعرف جيدا أنى لست سوى بروسيدية فقيرة ، ولكنى حسبت أنى إذا بدل زيى ان أكون مثارا لخجلك لو تبعتك إلى بلدك . أرى أنه يتعين على أن أظل كما كنت وأن أموت حيث ولدت . بيد أنه ما كان لك أن تلومنى على ما فعلت .

وعلى أثر هذه الكلمات انتزعت على مضض الأزهار والقبعة والإيشارب ، وألقتها بعيداً عنها فى حركة غيظ وحنق ، ثم جعلت تطوّيها

بالقدم موجهة إليها اللوم مثلما فعلت جدتها بألواح الزورق بعد الغرق .
ثم هرعت صوبي ونفخت القنديل الذي في يدي ، حتى لا أراها مدة
أطول في هذا الثوب الذي لم يرقني .

لقد شعرت أني كنت مخطئا إذ مازحتها بعنف يجاوز الحد ، وأن
المزاح كان بجد . وسألتها الصفح . قلت لها : إني مازجرتها هكذا
إلا لأني أجدها كروسيدية أفتن منها ألف مرة كفرنسية . وكان هذا حقا،
ولكن سبق السيف العذل . فما عادت تسمعني ، إذ انخرطت في النشيج .

وجعلت أتراءاها تخلعن ثيابها . ولم أرها بعد ذلك إلا في الغداة ،
كانت قد عادت إلى ارتداء ثيابها الوطنية ، ولكن عينيها كانتا حمراوين
بفعل ما كلفها هذا المزاح من دموع طول الليل .

— ٣٢ —

ونحو ذلك الوقت نفسه ، بدأت جرازيلا توجس حذراً من
الرسائل التي أتلقاها من فرنسا ، مستريبة تماما في أن هذه الرسائل
تستدعيني . ولم تكن تجسر على أن تختلسها مني ، فإلى هذا الحد كانت
صادقة الطوية وليس من شيمتها المخادعة حتى في سبيل حياتها . ولكنها
كانت تحتجزها أحيانا تسعة أيام ، وتشبكها بإحدى دبابيسها المذهبة
خلف صورة العذراء المعلقة على الجدار بجوار سريرها . كانت تحسب
أن القديسة العذراء وقد رقت لكثير من صلواتها التساعية من أجل
حبنا سوف تغير فحوى هذه الرسائل بمعجزة ، وتحول أوامر العودة
إلى دعوة للبقاء بقربها . وما من واحدة من هذه التدليسات الصغيرة
الورعة خفيت عني ، وكانت جميعها تزيدها معزة عندي . ولكن
الساعة تدنو .

وذات مساء فى أواخر شهر مايو قرع الباب قرعا عنيفا . وكانت الأسرة كلها نائمة . وذهبت لأفتح . كان صديق ف . . وقال لى « جئت أبحث عنك . هاك خطاباً من أمك . سوف لا تعصاه . ولقد أمرت بإعداد الجياد لمنتصف الليل . والساعة الآن الحادية عشرة . فلنرحل ، وإلا فلن ترحل قط . وهذا امرى يقضى على أملك . . وأنت تعرف إلى أى مدى تعدها أسرتك مسئولة عن كل أخطائك . ولطالما ضحت من أجلك ، فلتضح أنت لحظة من أجلها . وأقسم لك أنى سوف أعود معك لننفق الشتاء وسنة أخرى طويلة هنا . ولكن يجب أن تظهر بين أسرتك ، وأن ترضخ لأوامر أمك .

وشعرت بأنى قد ضعت . قلت له « انتظرنى هنا » رجعت إلى غرفتى وألقيت ثيابى فى حقيبتى على عجل . وكتبت إلى جرازيلا . قلت لها كل ما استطاع حنانى أن يعبر به عما يجيش بقلب ابن ثمانى عشرة سنة ، وكل ما استطاع العقل أن يطلبه من فتاة مخلصة لأمها . وعاهدتها كما عاهدت نفسى ، أن أكون بقربها قبل أن ينقضى الشهر الرابع ، وأنى لن أفارقها بعد ذلك . وإذ طويت الرسالة ، اقتربت بخطوات صامتة وجثوت على ركبتى على عتبة باب غرفتها ، ودسست القصاصة إلى غرفتها من تحت الباب ، وازدردت الغصة الباطنة التى كانت . . تخنقنى خنقا .

وتأبط صديق ذراعى ، وأنهضنى واقتادنى ، وفى تلك اللحظة فتحت الباب جرازيلا التى أفزعتها ولا شك هذه الجلبة غير المألوفة . وتعرفت الصبية المسكينة على صديق . وأبصرت حقيبتى التى كان يحملها

أحد الخدم على كتفيه فمدت ساعديها ، وأطلقت صرخة ذعر ، ووقعت فوق الشرفة فاقدة الوعى .

فوثبنا نحوها . وحملناها دون أن تدرى إلى سريرها . وتقاطرت الأسرة كلها . وطفقوا يرشون بالماء وجهها . وينادونها بجميع الأصوات العزيزة عليها . إلا أنها لم تستعد رشدها إلا على صوتى . وقال لى صديقى « ها أنتذا ترى أنها على قيد الحياة . لقد تحملت الصدمة ، إن المزيد من الوداعات الطويلة لن تكون إلا صدمات مضادة أهول وقعا . » وفك ذراعيه الباردتين من حول عنقى وانتزعنى من الدار انتزاعا . وبعد ذلك بساعة كنا نطوى فى ظل السكون وفى هدأة الليل الطريق إلى روما .

— ٣٤ —

كنت قد تركت لجرازيلا كثيرا من العناوين فى الرسالة التى دبجتها لها . ووجدت رسالة أولى منها فى ميلانو . وكانت تقول فيها إنها سليمة البدن سقيمة القلب ، غير أنها تثق بكلمتى وسوف تنتظرنى آمنة مطمئنة نحو شهر نوفمبر .

ولما بلغت ليون وجدت رسالة ثانية منها أشد نقاء وأعمق اطمئنانا . وكانت الرسالة تنطوى على بعض أزهار القرنفل الأحمر التى كانت مستنبتة فى أصيص من الفخار فوق دعامة الشرفة على مقربة من غرفتى ، والتى كانت ترشق زهرة منها فى شعرها يوم الأحد . ترى أكان ذلك لترسل لى شيئا كان يؤثر فى قلبها ؟ أم كان عقابا دقيقا مستخفيا فى ظل رمز ومقصودا به تذكيرى أنها قد ضحت شعرها فى سبيلى ؟ .

ثم مكثت بعد ذلك أكثر من ثلاثة أشهر دون أن أتلقى أية رسالة .

وكنت أفكر فى جرازيلا كل يوم . وكنت مزمعا الرحيل ثانية إلى إيطاليا فى مستهل الشتاء التالى . وكان محياها الحزين الساحر يتراءى لى إبان ذلك كطيف ندم، وأحيانا أيضاً كطيف عتاب رقيق . وكنت فى تلك السن الجامدة التى يثير فيها الطيش والتقليد خجل الشباب من خير مشاعره، سن قاسية تتهاوى فيها فوق الرمل أجل عطايا الله، الحب الخالص والعواطف البريئة ، وتذروها رياح الدنيا ذرو الدقيق. كان زهو أصدقائى هذا الردىء والساحر معا كثيراً ما يصارع فى نفسى الحنان المكنون والحمى فى أعماق فؤادى . ما كنت أجرؤ على الاعتراف دون أن أخجل ودون أن أتعرض للسخرية والتهكم أيا كان اسم ومكانة مناط أسنى وأشجانى . أبدا ما كانت جرازيلا منسية وإنما كانت محجوبة فى حياتى . هذا الحب الذى كان يسحر فؤادى ، كان يضائل من احترامى .

إن ذكراها التى كنت أرعاها وأغذيها فى نفسى فى العزلة فقط، كانت تطاردنى فى المجتمع كأنها وخز الضمير ! لكم أخجل اليوم من أنى خجلت آنئذ ، إن شعاع غبطة واحداً أو عبرة واحدة من عينيها الطاهرة كانت أثمن من تلك النظرات ، من كل تلك المغازلات ، ومن كل تلك البسمات التى أوشكت من أجلها أن أضحى بخيالها . آه . إن الشاب اليافع لعاجز عن أن يحب ! إنه لا يعرف قيمة أى شىء ! إنه لا يعرف السعادة الحقة إلا بعد أن يفقدها ! الأشجار الغضة بالغابة فيها عصارة أكثر جنونا وظل أكثر تنقلا ، أما قلب السنديانة العجوز فأكثر نارا .

إن الحب الصادق لهو ثمرة الحياة الناضجة . والمرء فى الثامنة عشرة لا يعرفه وإنما يتوهمه . وفى الطبيعة النباتية عندما تأتى الثمرة تسقط

الأوراق ، ولعل الأمر كذلك فى الطبيعة البشرية . كثيرا ما فكرت فى ذلك منذما جعلت أعد الشعرات البيضاء تكلل رأسى . ولقد لمت نفسى على أنى لم أعرف عندئذ قيمة زهرة الحب هذه . ما كنت إلا كبرا . والكبر أعق الرذائل وأقساها لأنه يثير الخجل من السعادة !

— ٣٥ —

وذات مساء فى أوائل نوفمبر ، سلمت إلى إثر عودتى من حفلة ساهرة قصاصة وحزمة كان قد أحضرهما لى مسافر قادم من نابولى من محطة البريد عندما غير جياده فى ماكون . كان المسافر المجهول يخطرنى أنه كلف بإبلاغى رسالة هامة من قبل أحد أصدقائه ، مدير أحد مصانع العقيق فى نابولى ، وقد أدى الرسالة بمروره ، وإنما لم يسأل أن يلقانى لأن الأنباء التى يحملها لى محزنة مشئومة ، ويرجونى فقط أن أبلغه فى باريس أنى تلقيت الحزمة .

فضضت الحزمة مرتعشا . وكانت تتضمن — خلف الغلاف الأول — رسالة أخيرة من جرازيلا ، لاتحتوى غير الكلمات التالية : « يقول الطبيب إنى سأموت قبل انقضاء ثلاثة أيام . أود أن أقول لك الوداع قبل أن تخور قواى . أوه ! لو أنك كنت هنا ، إذن لعشت ، ولكنها إرادة الله ، سوف أكلمك عاجلا ودائما من عليين . فلتعشق روحى . ستكون معك طيلة عمرك . وإنى أدع لك شعرى الذى قصصته ذات ليلة من أجلك . فلتكرسه لله فى إحدى كنائس بلدك حتى تكون بضعة من ذاتى بالقرب منك . »

— ٣٦ —

مكثت مشلولا مهدوما ، ورسالتها فى يدى ، حتى طلع النهار .

لم تواتنى القوة قبلئذ على فض الغلاف الثانى . وكان ينطوى على شعرها الجميل كله بالحالة التى كان عليها ليلة أن أرتنيه فى الكوخ . وكان لا يزال مختلطا ببعض أوراق الخلنج التى كانت قد لصقت به ليلتئذ . وفعلت ما أوصت به فى أمنيتها الأخيرة . ومنذ ذلك اليوم انتشر ظل موتها على محياى وعلى شبابى .

وبعد ذلك باثنى عشر عاما عدت إلى نابولى وجعلت أقتفى أثرها ، ولم أجد لها أثرا فى مارجلينا ولا فى بروسيدا . كان البيت الصغير القائم على صخور ساحل الجزيرة قد انهار أطلالا . فما عاد سوى كتلة من الصخور الغبراء فوق قبو يحمى فيه الرعاة عنزاتهم أثناء الأمطار . إن الزمن يمحو ما فوق الأرض بسرعة . ولكنه لا يمحو قط آثار حب أول فى القلب الذى اخترقه .

أى جرازيلا المسكينة ، كم من أيام مضت منذ تلك الأيام ! لكن ما من شىء غير ظهورك الأول فى قلبى . فكلما تقدم بى العمر ازددت منك قربا بفكرى . إن ذكراك مثل نيران قارب أبيك هذه التى يخلصها المدى من كل دخان . والتى تزداد تألقا كلما ازدادت نأيا عنا .

لست أدرى أين يرقد جثمانك . ولا ما إذا كان أحد لا يزال يبكيك فى بلدك . ولكن لحدك الحق فى ذاتى . ففيها قد ضممت ووريت بأكملك . وليس عبثا قط أن اسمك يؤثر فى قلبى . إنى أحب اللغة التى يلفظ بها . وإن ثمة دائما فى شغاف فؤادى عبرة . تنسكب قطرة قطرة . أو تساقط خفية على ذكراك لتنعشها وتبقيها فى روحى حية عطرة .

الناشر
دار الفكر العربي

